-NADVI

SHA'IR AL-ISLAM



DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

ابو الحسن علي الحسني الندوي

شاعر الاسلام

الدكتور محمد اقبال

القاهرة

مطبعة دار الكتاب العربي

١٩٥١



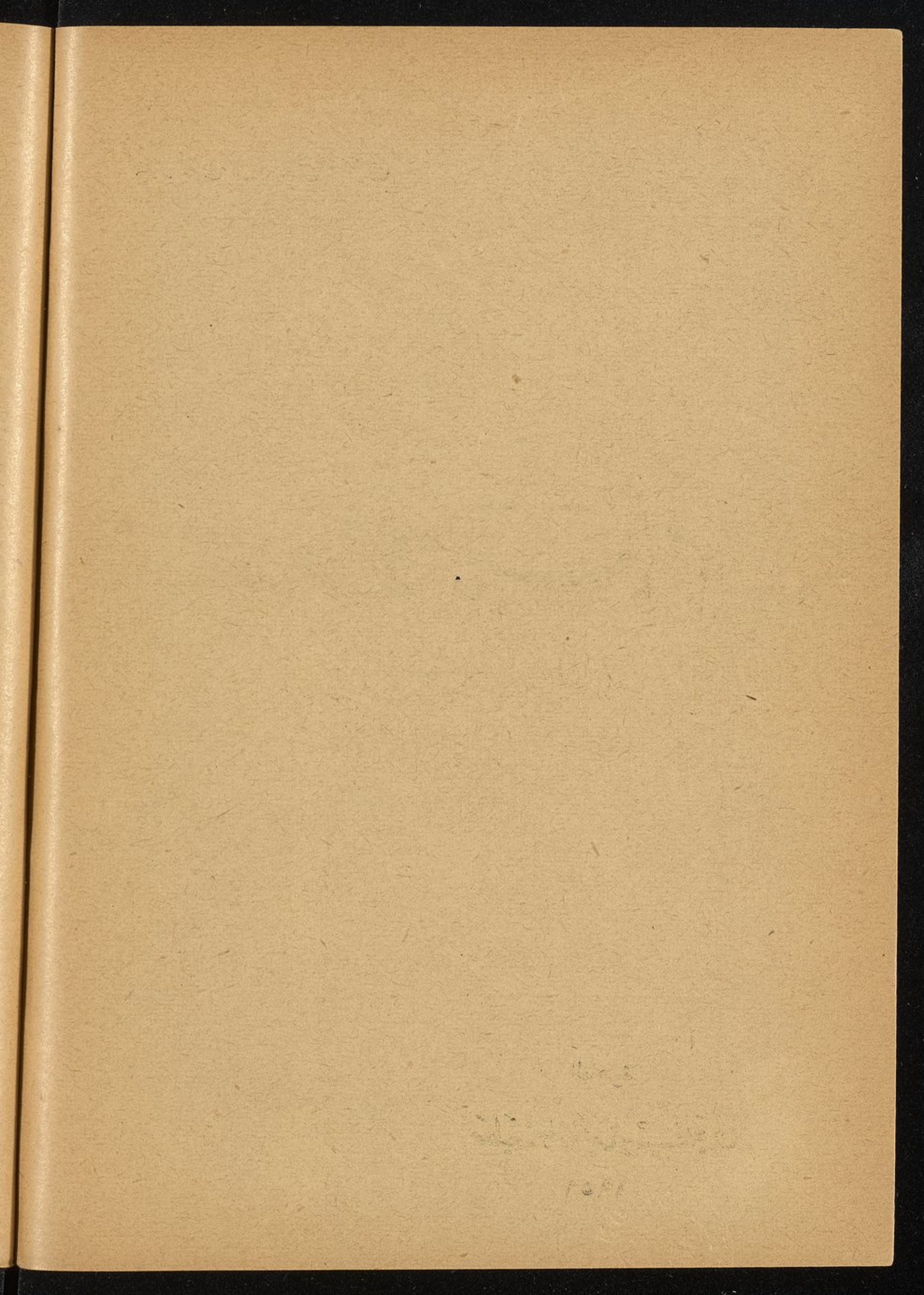
شاعر الاسلام

الدكتور محمد اقبال

القاهرة

مطبعة دار الكتاب العربي

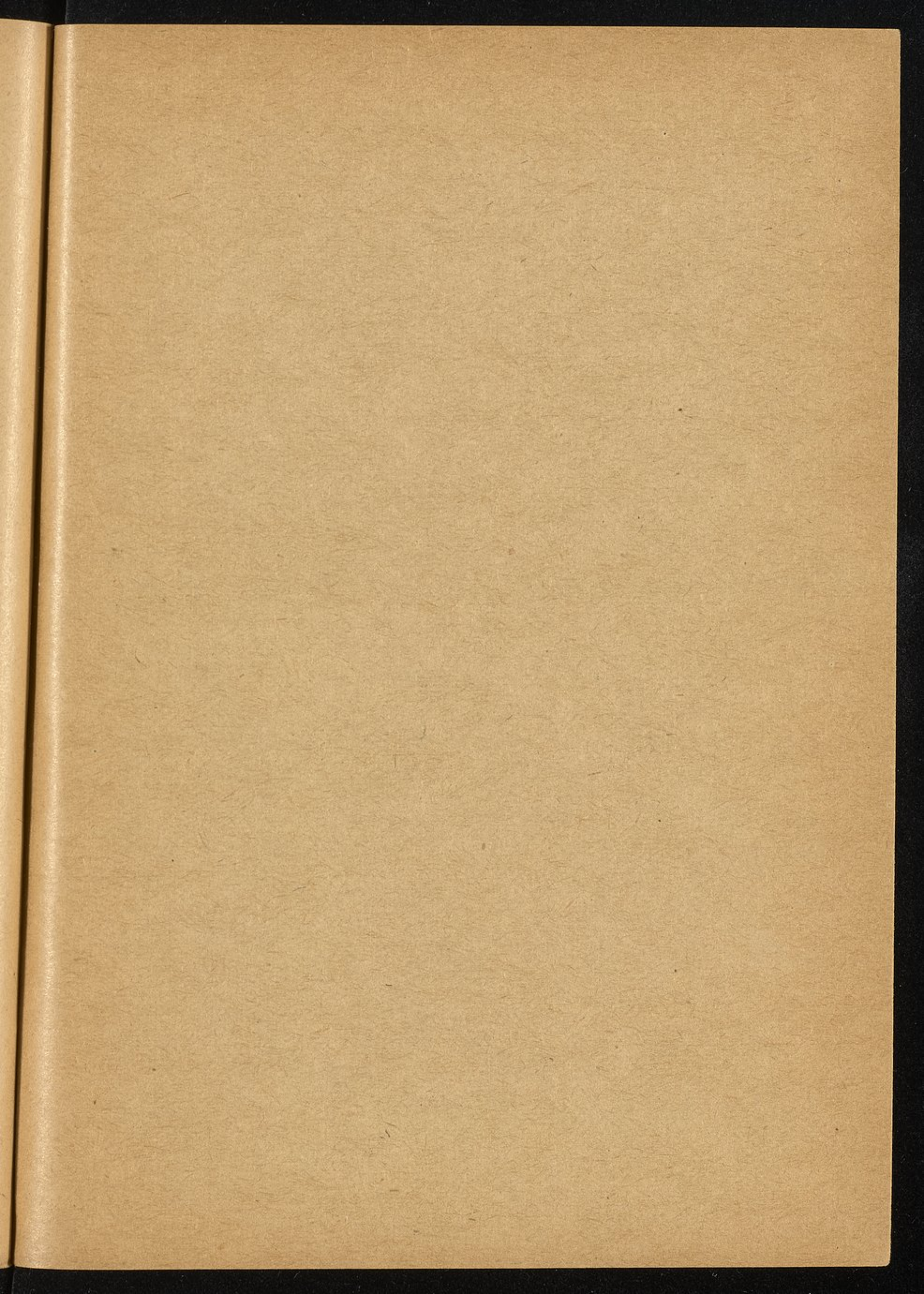
١٩٥١



شاعر الاسلام

الدكتور محمد إقبال

ثقافته ومكونات شخصيته ، آراؤه فى التعليم والعلوم والآداب، ورسالته إلى الجيل الجديد والشباب الإسلامى



بسم الله الرحمن الرحيم

شاعر الإسلام

الدكتور محمد إقبال

خلاصة حياته :

ولد محمد إقبال فى سيالكوت مدينة فى مقاطعة بنجاب سنة ١٨٧٧ م وهو سليل بيت معروف من أوسط بيوتات البراهمة فى كشمير أسلم جده الأعلى قبل مائتى سنة وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصلاح والتصوف وكان أبوه رجلا صالحاً يغلب عليه التصوف .

تعلم محمد إقبال فى مدرسة انجليزية فى بلده واجتاز الامتحان الأخير بامتياز ، ثم التحق بكلية فى ذلك البلد حيث تعرف بالأستاذ السيد مير حسن أستاذ اللغة الفارسية والعربية فى الكلية ، وكان من نوادر المعلمين الذين يطبعون تلاميذهم بطابعهم ويبعثون فيهم ذوق العلم فأثر فى الشاب الذكى كل تأثير وغرس فيه حب الثقافة والآداب الإسلامية ولم ينس إقبال فضله إلى آخر حياته .

ولما قضى وطره من الكلية سافر إلى لاهور عاصمة بنجاب وانضم إلى كليــــة الحكومة حيث أدى الامتحان الأخير فى الفلسفة وبرز فى اللغة العربية والانجليزية ونال وسامين وأخذ شهادة بكالوريا بامتياز ، وفى لاهور اتصلت أسبابه بالأستاذ الانجليزى الشهير سرتهامس ارنولد صاحب كتاب دعوة الإسلام (Preaching of Islam) ورئيس الكلية الإسلامية فى عليكره سابقاً ، وبالشيخ عبد القادر المحامى والأديب الشهير وقاضى محكمة الاستئناف بعد وعضو مجلس الهند سابقاً ، وكان أنشأ أول مجلة علمية أدبية فى أردو اسمها « مخزن » وكان إقبال نظم قصيدته الأولى البديعة « جبل هماله » وهى فارسية التركيب انجليزية الأفكار ونشرها الشيخ فى مجلته سنة ١٩٠١ م ، ونظم عدة قصائد أدبية توجد فى مجموع شعره الأول ، وكان لها دوى فى أندية الشعر والأدب واجتلبت العيون نحو الشاعر الشاب المبدع ، وفى هذه المدة أخذ محمد إقبال درجة (الماجستير) فى الفلسفة بامتياز ونال وساما وعين على أثره أستاذاً للتاريخ والفلسفة والسياسة فى الكلية الشرقية فى لاهور ، ثم أستاذاً للانجليزية والفلسفة فى كلية الحكومة التى تخرج منها وشهد بكفاءته وغزير علمه

الأساتذة والطلبة جميعاً وحاز على ثقة وزارة المعارف ، ثم سافر إلى لندن سنة ١٩٠٥ م حيث التحق بجامعة كامبرج وأخذ شهادة عالية فى الفلسفة وعـلم الإقتصاد ومكث فى عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقى محاضرات فى موضوعات إسلامية أكسبته الشهرة والثقة وتولى فى خلال تلك المدة تدريس آداب اللغة العربية فى جامعة لندن ، ثم سافر إلى المانيا وأخذ من جامعة ميونخ الدكتوراه فى الفلسفة ثم رجع إلى لندن واشترك فى الامتحان النهائى فى الحقوق وانتسب إلى مدرسة علم الإقتصاد والسياسة فى لندن وتخصص فى العلمين ورجع إلى الهند سنة ١٩٠٨ م سالماً غانماً ولما مر بصقلية فى طريقه إلى الهند سكب على ترابها دموعا وقال قصيدة افتتحها بقوله : « إبك أيها الرجل دما لا دمعاً فهذا مدفن الحضارة الحجازية » .

ومن دواعى العجب أن كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة وهو لم يتجاوز اثنين وثلاثين من عمره ، وأقام له أصدقائه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم ، واشتغل الشاعر الفلسفى الإقتصادى السياسى الحاذق فى عدة لغات بالمحاماة ، لـكن ما كان هواه فى المحاماة فكان يقضى أكثر أوقاته وجل

همته فى تأليف الكتب وقرض الشعر ، وكان يحضر حفلات جمعية « حماية الإسلام » السنوية وينشد فيها قصائده ، منها قصيدة « العتاب والشكوى » التى اشتكى فيها إلى الله على لسان المسلمين ما حل بهم وذكر أعمال المسلمين الخالدة فى سبيله وفى سبيل الجهاد والاصلاح ، ثم نظم قصيدة أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية بين فيها تقصير المسلمين وإهمالهم للدين وعدم إتقانهم أمر الدنيا تبريراً لما جزوا به من الخزى والهوان ، وسرعان ما سارت بهما الركبان وتغنى بهما الأطفال والشبان وحفظهما الرجال والنساء وهما عندهم أشهر من « قفا نبك » ، وهما قصيدتان بديعتان مبتكرتان فى الأسلوب والمعانى والغرض ، وقال : « النشيد الوطنى » و « أنشودة المسلم » ، وكلاهما سار مسير المثل وصار الأول النشيد الوطنى الوحيد الذى لا يزال ترتج بها الحفلات المشتركة الشعبية فى الهند والثانية أنشودة المسلم التى تفتتح بها إجتماعات المسلمين .

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠ م وما يوم حليمة بسر ، فكان لها فى نفسية الشاعر أعمق أثر وجرحت عواطفه وقلبه فتحرك ساكنه وهاج هائجه

وجعلت منه عدواً لدوداً للحضارة الغربية والامبراطورية الأوربية وأملاه حزنه ووجده قصائد كلها دموع حارة فى سبيل المسلمين ، وسهام مسمومة فى صدور الأوربيين . وتتجلى هذه الروح فى جميع ما نظم وقال فى هذه الفترة ، فمن قصائده « البلاد الإسلامية » رد على « الوطنية » والدعوة إلى الجامعة الإسلامية « إلى شباب الإسلام » « يا هلال العيد » « المسلم » « فاطمة بنت عبد الله — (وهى فتاة مسلمة استشهدت فى جهاد طرابلس) « محاصرة أدرنه » « الصديق » « بلال » « الحضارة الحديثة » « الدين » « شكوى إلى الرسول » وقد نعى فى هذه القصيدة على الزعماء والقادة الذين يتزعمون المسلمين وليست عندهم صلة روحية بالنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « أنا برىء من أولئك الذين يحجون إلى أوربا ويشدون إليها الرحال مرة بعد مرة ولا يتصلون بك أبداً فى حيـــاتهم ولا يعرفونك » و « هدية إلى الرسول » وقد قال فيها « إنه حضر عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ماذا حملت إلينا من هدية ؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدنيا وقال إنها لا تليق بمقامك الكريم ، ولكن أنا جئت بهدية زجاجة يتجلى فيها شرف أمتك وهو دم شهداء طرابلس »

ثم انفجر البركان الأوربى سنة ١٩١٤ وحدث ما حدث فانقلب الشاعر داعياً ومجاهدا وحكيما وفيلسوفا يتكهن بالأخبار ويقول الحقائق وينظم الحكم ويشب من حماسته نيرانا ويفجر بإيمانه وثقته أنهارا وجاش صدره وفاض خاطره وسالت قريحته ، وفى تلك المدة نظم غرر قصائده منها « خضر الطريق » وفيها قطع منها « الشاعر والتجول فى الصحراء » و « الحياة » و « الحكومة » و « الرأسمالية » و « الأجير » و « عالم الإسلام » و « طلوع الإسلام » وكلها آية فى الشعر والحكمة والحماسة وحقائق الحياة ، أما طلوع الإسلام فهى بيت القصيد فى شعره لا يوجد لها نظير فى الشعر الإسلامى فى القوة والانسجام ، وقد طبع سنة ١٩٢٤ م أول مجموع شعره باسم « بانك درا » يعنى جرس القافلة ، فكان إقبال الناس عليه عظيما وحظى من القبول ما لم يحظ شعر شاعر وأعيد طبعه مراراً بعدد كبير .

ثم بدأ العهد الأخير الذى انتهى إلى وفاته وقد ازداد فكره نضجاً وأفق معارفه اتساعا وقد انتظمت دعوته واتضحت رسالته فنشر له عدة كتب بالفارسية وقد اختار اللغة الفارسية لشعره لأنها أوسع من الأردوية وهى اللغة

الإسلامية الثانية التي يتكلم بها قطران مهمان إيران وأفغانستان وتفهم في الهند ويحذقها كثير من أهلها وأهل تركستان وروسيا ، وكتابان بالأردوية فأما الدواوين الفارسية فهي «أسرار خوري» يعني أسرار معرفة الذات و« رموز بيخودي (أسرار فناء الذات) و « بيام مشرق » (رسالة الشرق) في جواب كتاب « جيته » « تحية الغرب » و « زبور عجم » و « جاويدنامه » و « بس جه بايدكرد أي أقوام شرق » (ماذا ينبغي أن تعمل الشعوب الشرقية) ومسافر و« ارمغان حجاز » (هدية الحجاز) وبالأردوية « بال جبريل » (جناح جبريل) و « ضرب كليم » (ضرب موسى) وغير هذه الكتب محاضرات ألقاها في مدراس طبعت باسم Reconstruction - of religous thought in Islam) ومحاضرات ألقاها في جامعة كامبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون وعلماء الفلسفة والدين اعتناءا عظيما وعلقوا عليها أهمية كبيرة وترجم أكثر كتبه إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والطليانية والروسية ، وممن تولى هذا النقل الأستاذ الإنجليزي الشهير الدكتور نكلسن فترجم بالإنجليزية «أسرار خودي» و « رموز بيخودي » وألفت في ألمانيا وإيطاليا مجامع وهيئات

باسمه لدرس شعره وفلسفته ، وانتخب الدكتور رئيساً لحفلة الرابطة الإسلامية (Muslim League) السنوية التى عقدت سنة ١٩٣٠م فى اله آباد وعرض فى خطبته فكرة الباكستان أول مرة وانتخب عضوا فى المجلس التشريعى فى بنجاب وذهب منـــدوباً للمسلمين يمثل مؤتمر المسلمين (Muslim Conference) فى مؤتمر المائدة المستديرة الثانى سنة ٣٢ — ١٩٣١ وجاءته الدعوة فى لندن من حكومة فرنسا وأسبانيا وإيطاليا فزار القطرين الآخيرين وألقى فى مجريط محاضرات فى الفن الإسلامى وزار مسجد قرطبة وصلى فيه لأول مرة فى التاريخ بعد جلاء المسلمين وذرف على تربته دموعاً غزارا وتذكر العرب الأولين الذين حكموا هذه الأرض ثمانية قرون واستنشق فى جوه وهواءه أريج حضارتهم وشعر كأن هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين وجو قرطبة يشكو إليه بعد عهده من الأذان وظمأه إلى ذلك . فقال الشعر الرقيق الذى يعد من القطع الأدبية الخالدة ونظم قصيدة من أبدع قصائده ، وكان فى زيارته لهذه البلاد موضع حفاوة نادرة وإكرام بالغ وقابله السينور موسولينى وكان من قراء كتبه والمعجبين بفلسفته ، وتحدث معه

طويلا، وسألته حكومة فرنسا أن يزور مستعمراتها فى شمال أفريقية ولكن رفض الشاعر الإسلامى الغيور دعوتها وأبى أيضا أن يزور جامع باريس وقال إن هذا ثمن بخس لتدمير دمشق وإحراقها، وأثناء إقامته بأوربا أقيمت له عدة حفلات تكريم منها حفلة تكريم أقامها له أصدقائه وأساتذته فى جامعة كامبردج وجامعة لندن وحفلات أقامها جمعية أرسطو وجامعة روم وجامعة السربون وجامعة مجريط ، والمجمع الملكى فى روم ، وفى طريقه إلى الهند عرج على القدس واشترك فى المؤتمر الإسلامى الشهير ، وقال فى أثناء الطريق قصيدته البديعة « ذوق وشوق » .

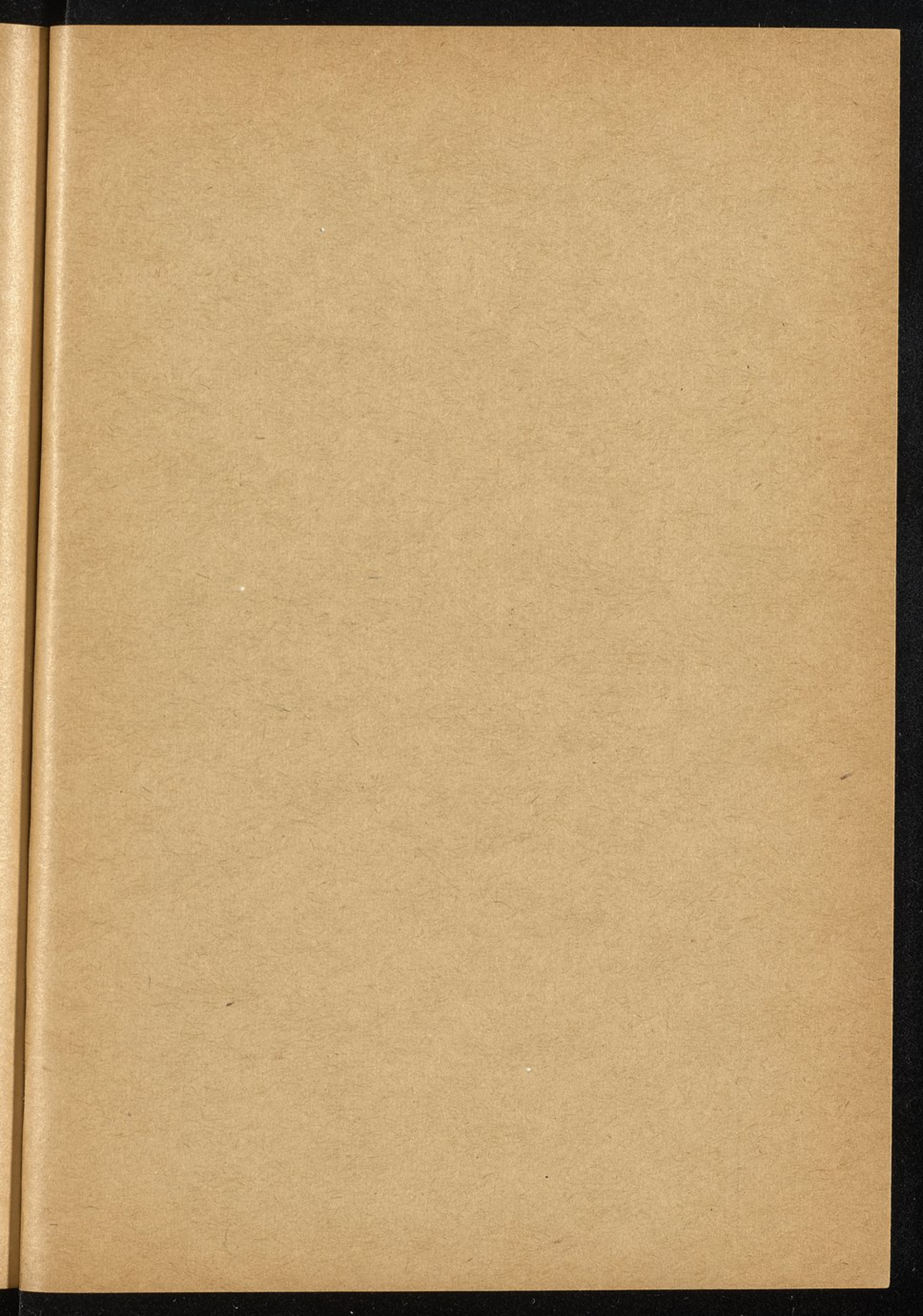
وفى سنة ١٩٣٢ لبى دعوة السلطان الشهيد نادرخان ملك أفغانستان فى بعثة تتألف من فقيد العلم والشرف سر راس مسعود حفيد سر سيد احمد خان وعميد جامعة عليكره الإسلامية والأستاذ الكبير السيد سليمان الندوى ، وتحدث إليه الملك الفقيد طويلا وأفضى إليه بذات صدره وبكيا طويلا ، ولما زار قبر السلطان محمود الغزنوى فاتح الهند والحكيم سنائى لم يملك عينيه وافتضح باكيا وعلى أثر رجوعه من كابل نظم منظومته « مسافر » .

وكان الشاعر يشتكى أدواءاً يغلبها وتغلبه وانحرفت صحته أخيراً وظل أياماً طويلة رهين الفراش لم يزل لسانه يفيض بالشعر ويملى الكتب والمقالات ويقابل الأصدقاء والزوار والعواد ويحادثهم فى شئون إسلامية وعلمية ، ومما نشر له فى هذه الأيام مقالة مستفيضة فى الرد على القومية تناقلتها الصحف وتحدث بها الناس ، ومما قال قبل وفاته بأيام « جنة لأرباب الهمم وجنة لمقدسى الحرم قل للمسلم الهندى : أبشر فإن فى سبيل الله جنة أيضا » وقال قبل وفاته بعشر دقائق (ليت شعرى هل تعود النغمة التى أرسلتها فى الفضاء وهل تعود النفحة الحجازية ، قد أظلنى موتى وحضرتنى الوفاة فليت شعرى هل حكيم يخلفنى) وقال وهو يجود بنفسه (أنا لا أخشى الموت أنا مسلم ، من شأن المسلم أن يستقبل الموت مبتسما) وكان ذلك آخر برهان اقامه على صدق الإسلام وإيمان المسلم ويقينه ، ولفظ نفسه الأخير فى حجر خادمه القديم على حين غفلة من العواد والأصدقاء والتلاميذ والإخوان والأولاد الروحيين فى سائر أنحاء العالم الإسلامى وغربت هذه الشمس التى ملأت القلوب حرارة ونورا قبل أن تطلع شمس ٢١ ابريل ١٩٣٨ م

العـــــوامل

التى كونت شخصية محمد إقبال

وآراؤه فى التعليم والعلوم والجيل الجديد



العوامل التى كونت شخصية محمد إقبال

وأراؤه فى التعليم والعلوم والجيل الجديد (*)

سادتى وإخوانى ! يسرنى جداً أن أتحدث إليكم عن شاعر الإسلام العظيم وحكيم الشرق الدكتور محمد إقبال ، ويزيدنى سروراً واغتباطا أن يكون هذا الحديث فى مركز تعليمى وأدبى كبير كدار العلوم وبهذه المناسبة سيدور حديثى اليوم حول دراسة هذا الرجل العظيم والمدارس التى تخرج فيها وآراؤه ونظراته فى التعليم والمتعلمين والثقافة والمثقفين والجيل الجديد .

المدرسة الأولى التى تخرج فيها محمد إقبال :

لقد تخرج محمد إقبال فى مدرستين ، أما المدرسة الأولى فهى مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية ، فلم يزل يتقلب فى فصولها ودروسها ما بين الهند وإنجلترا وألمانيا ، ويقرأ على أساتذتها البارعين ويرتوى من مناهلها حتى أصبح

(*) محاضرة ألقيت فى كلية دار العلوم فى ٢٠ من جمادى الثانية ١٣٧٠ هـ الموافق ٢٨/٣/٥١ م .

من أفذاذ الشرق الإسلامى فى ثقافته الغربية ، أخذ من علوم الغرب وثقافته وحضارته من فلسفة واجتماع وأخلاق واقتصاد وسياسة ومدنية غاية ما يمكن لغربى متخصص فضلا عن شرقى متطفل ، وبلغ بدراسته إلى أحشاء الفلسفة القديمة والجديدة ، هذا إلى توسع فى الآداب الانجليزية والألمانية والشعر الغربى فى مختلف أدواره وعصوره ودراسة الفكر الغربى فى مختلف أطواره ومراحل حياته .

المدرسة الثانية :

ولكن لو وقف صاحبنا عند هذا الحد واكتفى بثمار هذه المدرسة لما كان موضوع حديث اليوم ، ولما اشتغل الأدب الإسلامى والتاريخ الإسلامى بالتغنى بآثاره ولما فسحا له محل الصدارة العلمية والزعامة الفكرية والعبقرية الإسلامية ولكل منها شروط دقيقة ومستوى عال لا يحتله الإنسان بمجرد الدراسة والتفنن فى العلوم وكثرة التآليف والإنتاج ، أقول لو وقف صاحبنا عند هذه المدرسة واقتصر على ثقافتها ودراستها لما زاد على أن يكون أستاذا كبيرا فى الفلسفة أو علم الاقتصاد أو فى الأدب أو فى التاريخ ، أو مؤلفا كبيراً أو محاضراً بارعا فى العلوم العصرية أو أديبا

صاحب أسلوب أو شاعراً مجيدا ، أو محاميا ناجحا فى مهنته أو قاضيا فى محكمة أو وزيراً فى دولة ، وصدقونى أيها الإخوان أن لو كان ذلك لطواه الزمان فى من طوى من كبار العلماء والأدباء والشعراء ، والمؤلفين والقضاة والوزراء ، إن الفضل فى عبقرية إقبال وخلود آثاره ونفوذه فى العقول والقلوب يرجع إلى المدرسة الثانية التى تخرج فيها .

إنى لأراكم أيها الإخوان تذهبون كل مذهب فى تشخيص هذه المدرسة والاهتداء إلى موقعها ، وإنى لأراكم تتطلعون إلى معرفة أخبارها ، فمن أنشأ هذه المدرسة التى أنجبت مثل هذا الشاعر العظيم ؟ وما هى العلوم التى تدرس فيها ؟ وما هى لغة التعليم فى هذا المعهد ومن المعلمون فيها ؟ فلا شك أنهم من كبار المربين وأعظم الموجهين فقد انتجوا مثل هذا النابغة فى العلوم ، العملاق فى العقل والتفكير ، وما هى شروط هذه المدرسة وتكاليفها ؟ وأظن أن لو علمتم بوجودها ومحلها لأسرع كثير منكم إليها والتحق بها .

إنها مدرسة ما خاب من تعلم فيها ، وما ضاع من تخرج منها ، إنها مدرسة لم تخرج إلا أئمة الفن المجتهدين وواضعى العلوم المبتكرين وقادة الفكر والإصلاح المجددين الذين

يشغلون المدارس ورجالها بتفهم ما قالوا ودراسة ما كتبوا وشرح ما خلفوا وتعليل ما ألفوا وتأئيد ما أثبتوا وتفصيل ما أجملوا فيتكون من كلمتهم كتاب ومن كتابهم مكتبة .

إنها مدرسة ما تعلم التاريخ بل تخلق التاريخ ، وما تشرح الفكرة بل تضع الفكرة ، وما تنتخب الآثار بل تنتج الآثار ، إنها مدرسة توجد فى كل مكان وزمان وهى أقدم مدرسة على وجه الأرض .

ولا أمتحن صبركم أيها الإخوان طويلا ، إنها مدرسة داخلية تولد مع الإنسان . ويحملها الإنسان معه فى كل مكان ، هى مدرسة القلب والوجدان ، هى مدرسة تشرف عليها التربية الإلهية وتمدها القوة الروحية .

قد تخرج محمد إقبال فى هذه المدرسة كما تخرج كثير من الرجال الموهوبين وحدث عنها كثيرا فى شعره ورد إليها الفضل فى تكوين سيرته وعقليته وأخلاقه وشخصيته وصرح مراراً بأنه يدين لهذه المدرسة مالا يدين للمدرسة الخارجية وأنه لولا هذه المدرسة وتربيتها لما ظهرت شخصيته ولما اشتعلت مواهبه ولا اتضحت رسالته ولا تفتحت قريحته وقد حدث عن معلمى هذه المدرسة وأساتذتها كثيراً وذكر فضلهم عليه .

العامل الأول :

فمن يرد الفضل إليه فى هذه المدرسة « الإيمان » الذى لم يزل مربيا له ومرشدا ولم يزل مصدر قوته ومنبع حكمته ، وليس إيمان محمد إقبال هو الإيمان الجاف الخشيب الذى هو مجرد عقيدة أو تصديق بسيط بل هو مزيج اعتقاد وحب يملك عليه القلب والمشاعر والعقل والتفكير والإرادة والتصرف والحب والبغض، وقد كان شديد الإيمان بالإسلام ورسالته ،قوى العاطفة شديد الإخلاص والإجلال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،متفانيا فى حبه مقتنعا بأن الإسلام هو الدين الخالد الذى لا تسعد الإنسانية إلا به وأن النبى صلى الله عليه وسلم هو خاتم الرسل والبصير بالسبل وإمام الكل ، ويرجع محمد إقبال الفضل فى تكوين شخصيته وتماسكه أمام المادة ومغرياتها وتيار الحضارة الغربية الجارف إلى الاتصال الروحى بالنبي صلى الله عليه وسلم وحبه العميق له ،ولا شك أن الحب هو خير حاجز للقلب وخير حارس له إذا احتل قلبا وشغله منعه من أن يغزوه غيره أو يكون كريشة فى فلاة أو يعبث به العابثون يقول « لم يستطع بريق

العلوم الغربية أن يبهر لبي ويعشى بصري وذلك لأنى اكتحلت بإثمد المدينة » ويقول « مكثت فى أتون التعليم الغربي وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود » ويقول « لم يزل ولا يزال فراعنة العصر يرصدوننى ويكمنون لى ولكنى لا أخافهم فإنى أحمل اليد البيضاء ، إن الرجل إذا رزق الحب الصادق عرف نفسه واحتفظ بكرامته واستغنى عن الملوك والسلاطين ، لا تعجبوا إذا اقتنصت النجوم وانقادت لى الصعاب فإنى من عبيد ذلك السيد العظيم الذى تشرفت بوطأته الحصباء فصارت أعلى قدراً من النجوم وجرى فى إثره الغبار فصار أعبق من العبير » .

وفى كتاب « أسرار خودى » ذكر الشاعر مقومات حياة الأمة الإسلامية والدعائم التى تقوم عليها فذكر منها اتصالها الدائم بنبيها صلى الله عليه وسلم والتشبع بروحه والتفانى فى حبه ، ولما ذكر النبى صلى الله عليه وسلم اندفع الشاعر يمدحه وأرسل النفس على سجيتها فقال أبياتا لا تزال تعد من غرر المدائح النبوية والشعر الوجدانى ، يقول « إن قلب المسلم عامر بحب المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو أصل شرفنا ومصدر فخرنا فى هذا العالم، إن هذا السيد الذى داست

أمته تاج كسرى كان يرقد على الحصير ، إن هذا السيد الذى نام عبيده على أسرة الملوك كان يبيت ليالى لا يكتحل بنوم ، لقد لبث فى غار حراء ليالى ذوات العدد فكان أن وجدت أمة ووجد دستور ووجدت دولة ، إذا كان فى الصلاة فعيناه تهملان دمعاً وإذا كان فى الحرب فسيفه يقطر دماً ، لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين ، بأبى هو وأمى لم تلد مثله أم ولم تنجب مثله الإنسانية ، افتتح فى العالم دوراً جديداً وأطلع فجراً جديداً ، كان يساوى فى نظرته الرفيع والوضيع ويأكل مع مولاه على خوان واحد ، جائته بنت حاتم أسيرة مقيده سافرة الوجه خجلة مطرقة رأسها فاستحى النبى صلى الله عليه وسلم وألقى عليها ردائه ، نحن أعرى من السيدة الطائية ، نحن عراة أمام أمم العالم ، لطفه وقهره كله رحمة هذا بأعدائه وذاك بأوليائه ، الذى فتح على الأعداء باب الرحمة وقال لا تثريب عليكم اليوم ، نحن المسلمين من الحجاز والصين وإيران وأقطار مختلفة نحن غيض من فيض واحد نحن أزهار كثيرة العدد واحدة الطيب والرائحة ، لماذا لا أحبه ولا أحن إليه وأنا إنسان وقد بكى لفراقه الجذع وحنت إليه سارية المسجد ، إن تربة المدينة أحب إلى من العالم كله أنعم بمدينة فيها الحبيب » .

ولم يزل حب النبي صلى الله عليه وسلم يزيد ويقوى مع الأيام حتى كان فى آخر عمره إذا جرى ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فى مجلسه أو ذكرت المدينة على منورها ألف سلام فاضت عينه ولم يملك دمعه ، وقد ألهمه هذا الحب العميق معانى شعرية عجيبة منها قوله وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى « أنت غنى عن العالمين وأنا عبدك الفقير فاقبل معذرتى يوم الحشر ، وإن كان لابد من حسابى فأرجوك يا رب تحاسبنى بنجوة من المصطفى صلى الله عليه وسلم فإنى أستحى أن أنتسب إليه وأكون فى أمته وأقترف هذه الذنوب والمعاصى » .

وكان محمد إقبال كثير الاعتداد بهذا الإيمان شديد الاعتماد عليه ، يعتقد أنه هو قوته وميزته وذخره وثروته وأن أعظم مقدار من العلم والعقل وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات لا تساوى هذا الإيمان البسيط ، يقول فى بيت « إن الفقير المتمرد على المجتمع — يشير إلى نفسه — لا يملك إلا كلمتين صغيرتين قد تغلغلتا فى أحشائه وملكتا عليه فكره وعقيدته وهما « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وهنالك علماء وفقهاء الواحد منهم يملك ثروة ضخمة من الكلمات الحجازية ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه » .

هذا هو إيمان محمد إقبال أيها السادة وحبه ، ومن تتبع التاريخ عرف أن الحب هو مصدر الشعر الرقيق والعلم العميق والحكمة الرائعة والمعانى البديعة والبطولة الفائقة والشخصية الفذة والعبقرية النادرة ، وإليه يرجع الفضل فى غالب عجائب الإنسانية ومعظم الآثار الخالدة فى التاريخ ، وإذا تجرد منه شخص كان صورة من لحم ودم ، وإذا تجردت منه أمة كانت قطيعا من غنم ، وإذا تجرد منه شعر كان كلاماً موزونا مقفى فحسب ، وإذا تجرد منه كتاب كان مجموع أوراق وحبراً على ورق ، وإذا تجردت منه عبادة كانت طقسا من الطقوس وهيكلا بلا روح ، وإذا تجردت منه مدنية أصبحت تمثيلا لا حقيقة فيه ، وإذا تجردت منه مدرسة أو نظام تعليم أصبح تقليداً أو تكليفا لا متعة فيه ولا حافز له ، وإذا تجردت منه حياة كلت الطبائع وجمدت القرائح وأجدبت العقول وانطفأت شعلة الحياة واختنقت المواهب ، هذا هو الحب الصادق الذى يتجلى على الرجل فيصدر منه من روائع الكلام أو خوارق الشجاعة والقوة أو الآثار الخالدة فى العلم والأدب مالم يكن ليصدر منه لولا هذا الحب الذى أشعل موهبته وفتح قريحته وملك عليه قلبه وفكره وأنساه نفسه ومتاعب

الحياة وإغراء الشهوات وبريق المادة ، فتمرد بذلك على المجتمع ، هذا هو الحب الذى يدخل بين الطين والماء والحجارة والآجر فيجعل منها آثاراً خالدة وتحفة فنية كمسجد قرطبة ، وقصر الزهراء ، والتاج محل ، وما من أثر من الآثار الباقية فى الأدب والفن والتأليف والبطولة إلا ووراءه عاطفة قوية من الحب .

لقد ضل من زعم أن العلماء يتفاضلون بقوة العلم وكثرة المعلومات وزيادة الذكاء ، وان الشعراء يتفاضلون بقوة الشاعرية وحسن اختيار اللفظ ودقة المعانى ، وان المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة والمطالعة وكثرة التأليف والإنتاج . وان المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة واستحضار المادة الدراسية وكثرة المراجع ، وأن المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة فى الخطابة وأساليب السياسة والحكمة واللباقة ، إنما يتفاضل الجميع بقوة الحب والإخلاص لغايتهم إذا فاق أحدهم على الآخر فإنما يفوقه لأن الغاية أو الموضوع حل فى قرارة نفسه وسرى منه مسرى الروح وملك عليه قلبه وفكره وقهر شهواته واضمحلت فيه شخصيته فإذا تكلم تكلم عن لسانه وإذا كتب

كتب بقلمه ، وإذا فكر فكر بعقله ، وإذا أحب أو أبغض فبقلبه .

لقد جنت المدنية الحديثة أيها السادة على الإنسانية جناية عظيمة إذ قضت على هذه العاطفة التى كانت قوة كبرى ومنبعاً فياضا للحياة ، وملأت فراغها بالنفعية والمادية أو الحب الجنسى والغرام المادى ولم تستطع بحكم ماديتها وضيق تفكيرها أن تفهم أن هناك حباً للمعانى السامية وجمال معنوى هو أقوى من هذا الحب وأسائت المدرسة العصرية — وأعنى بها نظام التعليم الحديث — إلى الجيل الجديد إذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالا ما ولم تحسن توجيه القلوب وإشعالها بحرارة الإيمان وحياة الوجدان ، فأصبح العالم العصرى أشبه بجماد متحرك دائر لا حياة فيه ولا روح ،ولا قلب له ولا شعور . ولا ألم عنده ولا أمل ، إنما هو دوامة جامدة تديرها يد قاهرة أو إرادة قاسرة .

فإذا رأيتم أيها السادة أن شعر اقبال من نوع آخر غير النوع الذى عرفناه وجربناه فى شعرائنا المتقدمين والمتأخرين وغير الشعر الذى ندرسه فى مدارسنا ، هذا شعر تهتز له المشاعر وتتوتر له الأعصاب ويجيش له القلب

وتثور له النفس حتى تكاد تحطم السلاسل وتفك الأغلال وتتمرد على المجتمع الفاسد وتصطدم بالأوضاع الجائرة وتستخف بالقوة الهائلة ، شعر إذا قرأه الإنسان فى لغة الشاعر أحس بأنه قد مر به تيار كهربائى فهزه هزا عنيفا ، إذا وجدتم ذلك أيها السادة فاعلموا أنه ليس إلا لأن الشاعر قوى الإيمان قوى العاطفة جياش الصدر فياض الخاطر ملتهب الروح ، قد أحسنت المدرسة الثانية التى تحدثت عنها تربيته ، وقد أحسن أساتذتها تثقيفه وتغذية هذه العاطفة وتنميتها وإشعالها .

العامل الثانى :

أما الأستاذ الآخر الذى يرجع إليه الفضل فى تكوين شخصيته وعقليته فهو أستاذ كريم لا يخلو منه بيت من بيوت المسلمين ، ولعل مصر هى أسعد بلاد الإسلام بوجود هذا الأستاذ ولها فيه أوفر نصيب ، ولكن ليس الشأن فى وجود الأستاذ وكونه بمتناول اليد من تلاميذه ، إنما الشأن فى معرفته وتقديره وإجلاله والإفادة منه وإلا لكان أبناء البيت ورجال الأسرة وأهل الحى أسعد بعالمهم وأكثر انتفاعاً من غيرهم ، ولكن بالعكس من

ذلك رأينا أن العالم الكبير والحكيم الشهير والمؤلف العظيم ضائع فى بيته مهجور فى داره يزهد فيه أولاده ويستهين بقيمته أفراد أسرته ، ويأتى رجل من أقصى العالم فيغترف من بحر علمه ويتضلع من حكمه .

لاتذهب بكم الظنون ولا يبعد بكم القياس أيها الإخوان فذلك الأستاذ العظيم هو القرآن الكريم الذى أثر فى عقلية إقبال وفى نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية ، ولكنه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجل حديث العهد بالإسلام فيه من الاستطلاع والتشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مال ومتاع ودار وعقار ، وقد وصل هذا المهتدى إليه بشق النفس وعلى جسر من الجهاد والتعب ، كان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعانى والحقائق أعظم من سرور كلمبس لما اكتشف العالم الجديد ونزل على شاطئه ، أما الذين ولدوا ونشأوا فى هذا العالم الجديد فكانوا ينظرون إلى كلمبس وأصحابه باستغراب ودهشة ، ولا يفهمون معنى لما كان يخامرهم من سرور وفرح ، فإنهم لا يجدون فى هذا العالم شيئاً جديداً .

لقد كانت قراءة محمد اقبال للقرآن قراءة تختلف عن قراءة الناس ، ولهذه القراءة الخاصة فضل كبير فى تذوقه للقرآن واستطعامه إياه وقد حكى قصته لقراءة القرآن قال : « قد كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم وكان أبي يرانى ، فيسألنى ماذا أصنع ؟ فأجيبه بأنى أقرأ القرآن ، وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألنى سؤاله فأجيبه جوابى ، وذات يوم قلت له ما بالك يا أبى تسألنى نفس السؤال وأجيبك جوابا واحدا ، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد ، فقال إنما أردت أن أقول لك يا ولدى إقرأ القرآن كأنما نزل عليك ، ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه فكان من أنواره ما اقتبست ومن درره ما نظمت »

ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدنيا يغوص فى بحر القرآن ويطير فى أجوائه ويجوب فى آفاقه فيخرج بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وإشراق جديد ، وقوة جديدة ، وكلما تقدمت دراسته واتسعت آفاق فكره ازداد إيمانا بأن القرآن هو الكتاب الخالد والعلم الأبدى وأساس السعادة ، ومفتاح الأقفال المعقدة ، وجواب الاسئلة المحيرة

وأنه دستور الحيـاة ، ونبراس الظلمات ، ولم يزل يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى التدبر فى هذا الـكتاب العجيب وفهمه ودراسته والإهتداء به فى مشاكل العصر واستفتائه فى أزمات المدنية وتحكيمه فى الحياة والحـكم ، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الـكتاب الذى يرفع الله به أقواما ويضع به آخرين ، يقول فى مقطوعة شعرية : « إنك أيها المسلم لا تزال أسيرا للمتزعمين للدين ، والمحتكرين للعـلم ، ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن رأساً ، إن الـكتاب الذى هو مصدر حياتك ومنبع قوتك لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة فتقرأ عليك سورة يس لتموت بسهولة، فوا عجبا قد أصبح الـكتاب الذى أنزل ليمنحك الحياة والقوة يتلى الآن لتموت براحة وسهولة » .

وقد أصبح محمد إقبـال بفضل هذه الدراسة العميقة والتدبر لا يفضل على هذا الـكتاب شيئا ولا يعدل به تحفة وهدية لأغنى رجل فى العـالم وأعظم الرجال علماً وعقلا ، لذلك لما دعاه المرحوم نادر خان ملك افغانستان إلى كابل ونزل ضيفاً عليه أهدى محمد إقبال إلى الملك نسخة من القرآن وقدمها إليه قائلا : « إن هذا الـكتاب رأس مال

أهل الحق ، فى ضميره الحياة ، وفيه نهاية كل بداية ، وبقوته كان على فاتح خيبر ، فبكى الملك وقال لقد أتى على نادر خان زمان وما له أنيس سوى القرآن ، وهو الذى فتحت قوته كل باب .

العامل الثالث :

والركن الثالث أيها السادة فى نظام تربيته وتكوين شخصيته هو معرفة النفس والغوص فى أعماقها والإعتداد بقيمتها والاحتفاظ بكرامتها ، وقد عامل نفسه بما نصح به غيره فى قصيدة يقول فيها « انزل في أعماق قلبك وادخل فى قرارة شخصيتك حتى تكتشف سر الحياة ما عليك إذا لم تنصفنى وتعرفنى ، ولكن أنصف نفسك يا هذا واعرفها وكن لها وفياً ، ما ظنك بعالم القلب هو كله حرارة وسكر وحنان وشوق ، أما عالم الجسم فتجارة وزور واحتيال ، إن ثروة القلب لا تفارق صاحبها ، أما ثروة الجسم فظل زائل ونعيم راحل ، إن عالم القلب لم أر فيه سلطة الأفرنج ولا اختلاف الطبقات . لقد كدت أذوب حياءا ، وتندى جبينى عرقا إذ قال لى حكيم : « إذا خضعت لغيرك أصبحت لا تملك قلبك ولا جسمك » .

وقد كان اقبال كثير الاعتداد بمعرفة النفس ، يرى أن العبد يسمو بها إلى درجة الملوك بل ويعلوهم إذا كان جريئاً مقداما ، يقول فى قصيدة : « إن الإنسان إذا عرف نفسه بفضل الحب الصادق وتمسك بآداب هذه المعرفة انكشفت على هذا بعد أسرار الملوك ، إن ذلك الفقير الذى هو أسد من أسود الله أفضل من أكبر ملوك العالم ، إن الصراحة والجراءة من أخلاق الفتيان ، إن عباد الله الصادقين لا يعرفون أخلاق الثعالب » وقد جعلته هذه المعرفة النفسية والاعتداد لا يقبل رزقا إذا قيد حريته ، يقول فى نفس القصيدة « يا صاح إن الموت أفضل من رزق يقص من قوادمى ويمنعنى من حرية الطيران » .

وكان إقبال يعرف قيمته ويعرف مكانته — فى غير صلف وغرور — فيضن بحريته وكرامته ويربأ بنفسه عن أن يكون عبداً لغيره ، يقول فى مقطوعة : « لك الحمد يا رب إذ لست من سقط المتاع ولست من عبيد الملوك والسلاطين لقد رزقتنى حكمة وفراسة ولكنى أحمدك على انى لم أبعهما لملك من الملوك » ، ويقول مفتخراً : « إنى من غير شك فقير قاعد على قارعة الطريق ولكنى غنى النفس أبى » وكان عمله بما يخاطب به غيره فى قصيدة يقول فيها : « إذا لم تعرف

رازقك كنت فقيراً إلى الملوك وإذا عرفته افتقر إليك كبار الملوك ، إن الاستغناء ملوكية، وعبادة البطن قتل للروح وأنت مخير بينهما إذا شئت اخترت القلب وإذا شئت اخترت البطن» ولا شك أن محمد إقبال اختار القلب

لذلك كان يثور إذا جرحت كرامته وامتحنت عفته ، قدم إليه رئيس وزارة فى دولة فى عيد ميلاد محمد إقبال خمسة آلاف ربية فرفضها وقال « إن كرامة الفقر تأبى على أن أقبل صدقة الأغنياء » وعرضت عليه الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك فى افريقيا الجنوبية وكان من تقاليد هذه الوظيفة أن حرم نائب الملك تكون سافرة تستقبل الضيوف فى الولائم الرسمية وتكون مع زوجها فى الحفلات ، فأشير عليه بذلك فرفضها وقال : ما دام هذا شرطاً لقبول الوظيفة فلا أقبله لأنه إهانة دينى ومساومة كرامتى .

وقد كان بفضل معرفته بقيمة نفسه شديد الاحتفاظ بقوته ومواهبه يعتقد أنه صاحب رسالة ومهمة فى هذه الحياة وليس له أن يضع نفسه محل الشاعر الذى ليست له رسالة والنظامين الذين ينظمون فى كل مناسبة ، فإذا أريد منه غير ذلك ضاقت نفسه ، يقول فى أبيات وجهها إلى رسول الله

صلى الله عليه وسلم « أنى لأشكو إليك ياسيد الأمم أن أصدقائى يعتقدون أنى شاعر نظام فيقترحون على اقتراحات» ويقول فى بيت آخر « أنا حائر فى أمرى ياسيدى رسول الله إنك تأمرنى أن أبلغ أمتك رسالة الحياة والقوة وهؤلاء يقولون أرخ لموت فلان وفلان فماذا أفعل ؟ »

وقد كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته ومما انتفع بها الإسلام انتفاعا عظيما وقد عصمت الشاعر من التيه الفكرى والهيام الأدبى اللذان يصاب بهما أدبائنا وشعرائنا وكتابنا وعلمائنا فينتجعون كل كلأ ويهيمون فى كل واد ويكتبون فى كل موضوع وافق عقيدتهم أم لا، ويمدحون كل شخص ، ويظلون إلى آخر حياتهم لا يعرفون أنفسهم ولا يعلمون رسالتهم ، أما الدكتور محمد اقبال فكان من توفيق الله تعالى ومن حسن حظ الإسلام والمسلمين فى الهند أنه عرف نفسه فى أول يوم وقدر مواهبه تقديراً صحيحاً ثم ركز فكره وقوة شاعريته على بعث الحياة والروح فى المسلمين وإيجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم والإيمان برسالتهم والطموح إلى القوة والحرية والسيادة ، كان شاعراً مطبوعا حتى لو أراد أو أريد أن لايكون شاعراً لما استطاع

ولقهره الشعر وغلبه ، كان سائل القريحة ، فياض الخاطر ، ملهم المعانى مطاع اللفظ وكان مبدعا يوم كان شاعرا ، وكان شاعراً فنانا وصناعا ماهراً سلم له شعراء العصر الإمامة والإعجاز وتأثر بشعره الجو فما من شاعر ولا أديب فى عصره الا تأثر به فى اللغة والتراكيب والمعانى والأفكار والأغراض ، وهو من أفراد شعراء العالم فى التفنن والإبداع وابتكار المعانى وجدة التشبيه والاستعارات ، وقد ساعده فى ذلك اتصاله بالشعر الانجليزى والألمانى فضلا عن الفارسى الذى هو خاتم شعرائه ، ولكن ليس هذا كل ما يمتاز به محمد إقبال فعصره لا يخلو من شعراء ولا يخلو من شعراء مجيدين ، ولكنه امتاز بأنه أخضع شاعريته القوية وقوته الأدبية وعبقريته الفنية لرسالة الإسلام ، فلم يكن شاعر ملك ولا شاعر الوطنية ولا شاعر الهوى والشباب ولا شاعر الحكمة والفلسفة بل كان صاحب رسالة إسلامية استخدم لها الشعر كما تستخدم للرسائل أسلاك الكهرباء فتكون أسرع وصولا ، ولطيب الأزهار نفحات الهواء فيكون أكثر انتشارا ، فكان الشعر حامل رسالته ورائد حكمته يسبقها ويوطىء لها أكنافا ويذلل لها صعابا ويفتح أبوابا وكان شعره من جنود الاسلام — ولله جنود

السماوات والأرض — ولا أعرف أحداً أرضى الله ورسوله بشعره بعد حسان بن ثابت رضى الله عنه ، مثل ما أرضى هذا الشاعر المسلم ، فأيقظ أمة وأشعل قلوبها إيماناً وحماسة وطموحا إلى حياة الشرف والاستقلال والسيادة والحكم الإسلامى حتى أصبحت هذه الأمة لاترضى إلا بدولة تحكمها وتدير دفتها ، أوجد بشعره القوى الهزاز القلق الفكرى والاضطراب النفسى الذى عم هذا الشعب المسلم وساور الشباب الإسلامى بصفة خاصة فأصبحوا لا يرتاحون ولا يهدأ لهم خاطر فى حياة العبودية والذلة وحكم الأجانب حتى أصبحت فى يوم من الأيام الدولة المسلمة الحرة حقيقة راهنة وواقعاً ملموساً .

ولا نعرف شاعراً أو أديبا يرجع إليه الفضل فى تأسيس دولة وتهيئة النفوس لها مثل ما يرجع إلى هذا الشاعر الإسلامى ، وتعلمون جميعاً أن الدول تسبقها الثورات الفكرية والتذمر من الحاضر والتطلع إلى المستقبل والقلق النفسى ، فإذا تم هذا كله ونضج قامت دولة فان كان شعر قد أقام دولة وأحدث ثورة فكرية كانت سبب الانتقال من حياة إلى حياة ومن وضع إلى وضع ، فهو من غير شك شعر إقبال ،

وماذاك أيها الإخوان إلا لمعرفة الرجل نفسه وتقديره الصحيح لمواهبه وقوته ووضعها فى محلها والغيرة عليها من أن تضيع فى موضوعات تافهة وألفاظ فارغة وألوان زاهية ، ومظاهر الجمال الفانية ، وكم ضاع رجال من العبقريين وأهل المواهب الكبيرة لعدم معرفتهم أنفسهم وقيمة مايحسنون وما يمتازون به عن أقرانهم فباعوا أنفسهم وعلمهم بالمناداة أو باللغة المصرية بالمزاد العلنى وقتلوا إنسانيتهم قبل أن يقتلها غيرهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

العامل الرابع :

والمربى الرابع أيها السادة الذى يرجع إليه الفضل فى تكوين سيرته وشخصيته وفى قوة شعره وتأثيره وجدة المعانى وتدفق الأفكار هو أنه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب والأشتغال بالمطالعة بل كان يتصل بالطبيعة من غير حجاب ويتعرض للنفحات السحرية ويقوم فى آخر الليل فيناجى ربه ويشكو بثه وحزنه إليه ويتزود بنشاط روحى جديد وإشراق قلبى جديد وغذاء فكرى جديد فيطلع على أصدقائه وقرائه بشعر جديد يلمس الإنسان فيه قوة جديدة

وحياة جديدة ونوراً جديداً ، لأنه يتجدد كل يوم فيتجدد شعره وتتجدد معانيه .

وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التى يقضيها فى السحر ويعتقد أنها رأس ماله ورأس مال كل عالم ومفكر لا يستغنى عنها أكبر عالم أو زاهد ، يقول فى بيت « كن مثل الشيخ فريد الدين العطار فى معرفته ، وجلال الدين الرومى فى حكمته ، أو أبى حامد الغزالى فى علمه وذكائه ، وكن من شئت فى العلم والحكمة ، ولكنك لا ترجع بطائل حتى تكون لك أنة فى السحر » وكان شديد المحافظة على ذلك كثير الاهتمام به ، يقول فى مطلع قصيدة « رغم أن شتاء انجلترا كان قارسا جدا وكان الهواء البارد يعمل فى الجسم عمل السيف ولكنى لم أترك فى لندن التبكير فى القيام » وكان لا يبغى به بدلا ولا يعدل به شيئا ، يقول فى بيت « خذ منى ما شئت يا رب ولكن لا تسلبنى اللذة بأنة السحر ولا تحرمنى نعيمها » بل كان يتمنى على الله أن تتعدى هذه الأنة السحرية والحرقة القلبية إلى شباب الأمة المتنعمين فتحرك سواكن قلوبهم وتنفخ الحياة فى هياكلهم ، يقول فى قصيدة « اللهم جرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدينية وأيقظ الآمال والأمانى

النائمة فى صدورهم ، بنجوم سمواتك التى لا تزال ساهرة ، وبعبادك الذين يبيتون الليل سجدا وقياماً ، ولا يكتحلون بنوم أرزق الشباب الإسلامى لوعة القلب وأرزقهم حبى وفراستى » ويقول فى قصيدة « اللهم ارزق الشباب أنتى فى السحر وأنبت لصقور الإسلام القوادم والخوافى التى تطير بها وتصطاد ، ليست لى أمنية يا رب إلا أن تنتشر فراستى ويعم نور بصيرتى فى المسلمين » .

العامل الخامس :

والعامل الأخير والمؤثر الكبير فى تكوين عقليته وتوجيه رسالته أيها السادة هو « المثنوى المعنوى » بالفارسية وقد كتبه مولانا جلال الدين الرومى فى ثورة وجدانية ونفسية شديدة ضد الموجة العقلية الإغريقية التى اجتاحت العالم الإسلامى فى عصره ، وقد انتصر فيه للإيمان والوجدان انتصاراً قويا وانتصف للقلب والروح والعاطفة والحب الصادق والمعانى الروحية من المباحث الكلامية الجافة والقشور الفلسفية التى كانت تشغل أذهان المسلمين والمدارس الدينية والأوساط العلمية فى الشرق الإسلامى ، والكتاب متدفق قوة وحياة زاخر بالأدب العالى والمعانى الجديدة والأمثال

الحكيمة والحكم الغالية والنكت البديعة ، وطابعه العاطفة القوية والطبع الريان الذى يملى هذه المنظومة التى لا تزال فريدة فى موضوعها فى مكتبة الإسلام العامرة ، ولا يزال له التأثير القوى فى تحرير الفكر من رق العقل والتقديس الزائد للقيم العقلية والخضوع للمادية الرعناء ويبعث التمرد على عالم المادية الضيق والتطلع إلى أجواء الروح الفسيحة ، وكان العالم فى عصر محمد إقبال يواجه التيار العقلى الأوربى الذى جرف بجميع القيم الخليقة والروحية ، وقد زادت الآلات الميكانيكية هذه الحضارة بعداً عن المعانى الروحية والمبادىء الخلقية وما بعد الطبيعة ، فأصبحت حضارة عقلية ميكانيكية ، وقد قضى محمد إقبال فترة من الزمن ينازعه عاملان عامل العقل وعامل القلب وقام صراع بين عقله المتمرد وعلمه المتجدد ، وقلبه الحار الفائض بالإيمان ، وفى هذا الإصطراع الفكرى والاضطراب النفسى ساعده المثنوى مساعدة غالية ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً وحل له كثيراً من ألغاز الحياة ، ولم يزل محمد إقبال يعرف له الجميل ويحفظ له هذا الفضل ويذكره فى كثير من أبياته ويعزو إليه كثيراً من الحقائق والحكم ، يقول فى بيت يخاطب أحد المأخوذين

بسحر الغرب « قد سحر عقلك سحر الإفرنج فليس لك دواء إلا لوعة قلب الرومى وحرارة إيمانه ، لقد استنار بصرى بنوره ووسع صدرى بحراً من العلوم » ويقول فى بيت « لقد أفدت من صحبة شيخ الروم أن كليما واحداً — يشير إلى سيدنا موسى — هامته على راحته يغلب ألف حكيم قد أحنوا رؤسهم للتفكير » وكان محمد إقبال يرجو أن يجدد علمه ورسالته فى القرن العشرين ويخلفه فى مهمته العلمية والروحية ، وكان يشعر أن الشيخ لا يزال يفوقه فى الجانب الروحى ، وقد أشار إلى ذلك إشارة لطيفة ، يقول فى قصيدة «لم ينهض رومى آخر من ربوع العجم مع أن أرض إيران لا تزال على طبيعتها ولا تزال تبريز كما كانت إلا أن إقبال ليس قانطاً من تربته فإذا سقيت بالدموع أنبتت نباتاً حسناً وأتت بحاصل كبير » .

هذه هى العوامل البارزة التى كونت شخصية محمد إقبال وهذه هى آثار تربية المدرسة الثانية التى تخرج فيها ولا شك أنها أقوى من آثار المدرسة الأولى ، فإذا كانت المدرسة الأولى منحته مفردات اللغات المتعددة وكميات من المعلومات وافرة فقد علمته المدرسة الثانية كيف يستعمل هذه المعلومات

وكيف يخدم بها نفسه وأمته ، وقد منحته المدرسة الثانية العقيدة الراسخة والإيمان القوى والخلق المستقيم والتفكير السليم ، والرسالة الفاضلة .

نقده لنظام التعليم :

نظر محمد إقبال إلى مدرسته الأولى فرأى فيها مواضع ضعف كثيرة وجوانب نقص عظيمة فتناولها بالإنتقاد فى صراحة وشجاعة ولفت إليها أنظار الرجال القائمين عليها وذكر من جنايات المدرسة — ويقصد بها نظام التعليم الحديث — على هذا الجيل شيئا كثيراً يفيض به دواوين شعره ، يقول فى بيت « لقد خرجت من المدرسة والزاوية حزينا لم أجد فيهما الحياة ولا الحب ولا الحكمة ولا البصيرة» ويقول فى بيت آخر « أما رجال المدرسة ففاقدو البصر وميتو الذوق ، وأما شيوخ الزاوية فقاصرو الهمة ضعيفو الطلب قليلو البضاعة » .

جنايات المدرسة :

ومن رأى محمد إقبال أن التعليم الحديث قد جنى على هذا الجيل جناية عظيمة إذ اعتنت بتربية عقله وتثقيف

لسانه ولم تعتن شيئا بتغذية قلبه وإشعال عاطفته وتقويم أخلاقه وتهذيب نفسه ، فنشأ جيل غير متوازن القوى غير متناسب النشأة قد تضخم وكبر بعض نواحى إنسانيته وحياته على حساب بعض ، وأصبحت المسافة بين ظاهره وباطنه وعقله وقلبه وعلمه وعقيدته مسافة شاسعة ، بل أصبح التفاوت بين عقله وجسمه كبيراً فالأول ضخم وكبير والثانى ضعيف وناعم ، وهو إذا وصف هذا الجيل الذى عاش فيه وعرفه عن كثب واتصال صوره تصويراً صادقا ينطبق تمام الإنطباق على أبناء المدارس والشباب الجديد ، يقول :

« إن الشباب المثقف فارغ الأكواب ظمآن الشفتين ، مصقول الوجه ، مظلم الروح ، مستنير العقل ، كليل البصر ، ضعيف اليقين ، كثير اليأس ، لم يشاهد فى هذا العالم شيئاً ، هؤلاء الشبان أشباه الرجال ولا رجال ، ينكرون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم ، يبنى الأجانب من ترابهم الإسلامى كنائس وأدياراً ، شباب ناعم رخو رقيق فى الشباب كالحرير ، يموت الأمل فى مهده فى صدورهم ، ولا يستطيعون أن يفكروا فى الحرية ، إن المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينية ، وأصبحوا خبر كان ، أجهل الناس لنفوسهم وأبعدهم من

من شخصياتهم ، شغفتهم الحضارة الغربية يمدون كفهم إلى الأجانب ليتصدقوا عليه بخبز شعير ويبيعون أرواحهم فى ذلك ، إن المعلم لا يعرف قيمتهم فلم يخبرهم بشرفهم ولم يعرفهم بشخصيتهم ، مؤمنون ولكن لا يعرفون سر الموت ولا يؤمنون بأنه لا غالب إلا الله ، يشترون من الأفرنج اللات ومنات ، مسلمون لكن عقولهم تطوف حول الأصنام ، إن الأفرنج قد قتلوه من غير حرب وضرب ، عقول وقحة وقلوب قاسية ، وعيون لا تعف عن المحارم وقلوب لا تذوب بالقوارع ، كل ما عندهم من علم وفن ودين وسياسة وعقل وقلب يطوف حول الماديات ، قلوبهم لا تتلقى الخواطر المتجددة وأفكارهم لا تساوى شيئا ، حياتهم جامدة واقفة متعطلة » .

ويذكر محمد إقبال أن السبب فى جبن هذا الجيل وضعفه الخلقى هو الوضع التعليمى الحاضر ، وإهماله للجانب الخلقى ونشأة الشباب المتحللة يقول فى قصيدة « لا أستغرب أيها الشاب المتعلم أنك حئ جبان فان قلبك بارد لا لوعة فيه ولا حرارة ونظرك غير عفيف ، إن الشاب المثقف الذى استنارت عينه بنور الأفرنج قد يكون لبقاً فى الحديث متشدقا

فى الكلام ولكن عينه لا تعرف الدموع وقلبه لا يعرف الخشوع ، ويرى محمد إقبال أن المدرسة هى المسئولة عن هذا المسخ الخلقى وهى التى نزلت بالشباب المسلم عن مقامه الرفيع إلى المحل الوضيع يقول فى بيت « أشكو إليك يارب من ولاة التعليم الحديث إنهم يربون فراخ الصقور تربية بغاث الطيور وأشبال الأسود تربية الخروف » ومن أسباب هذا الضعف النفسى هو العقل المثبط الذى يمنع من المغامرات والمخاطرة بالنفس ويحذر من سوء العاقبة ويكبر الأخطار ، يقول فى بيت « إن التعليم قد باعدك من الجنون الذى كان ينازع العقل ويقول له : لا تتعلل ولا تتبطى عن المغامرة . إن الأسرار التى حجبتها عنك المدرسة لا تزال مكشوفة فى خلوات الجبال والصحارى » ومن أكبر أسباب هذا الضعف والذل التقدير الزائد للمادة والنظر إلى الوظيفة والمرتب كغاية للتعليم ، يقول فى بيت « إن ذلك العلم سم ناقع للأفراد الذى ليست له غاية إلا حفنتان من شعير (يعنى الراتب الذى يتقاضاه الموظف) .

مآخذه على التعليم :

ومن أكبر مآخذه على هذا التعليم أنه يبعث على التعطل وحب الهدوء والراحة ويجعل المتعلم كالمحيط الهادىء لا حركة فيه ولا اضطراب، يقول فى بيت « رماك الله أيها المتعلم بطوفان، فإن بحرك هادىء لا اضطراب فى أمواجه » وكذلك يبعث هذا التعليم فى الشباب الإخلاد إلى الراحة والترف وحب الزينة ، يقول فى قصيدة « إن مقاعدك أيها الشباب المسلم أفرنجية وزرابيك إيرانية ، وإنى أكاد أبكى دماً إذا رأيتك فى هذا الترف والبذخ ، لا خير فيك ولو أصبحت ملك الدنيا مادمت متجرداً من قوة على واستغناء سلمان »

ومن مآخذه على هذا التعليم أنه يحدث الفوضى الفكرية ، يقول فى بيت « إن المدرسة تحرر العقل بلا شك ولكنها تترك الأفكار بغير نظام وارتباط »

ومن مآخذه على نظام التعليم العصرى والمدرسة التى تمثله وتؤدى رسالته أنها مصابة بالتقليد والجمود ومجردة من الابتكار والاجتهاد، يقول فى قصيدة « إن العالم أسير التقاليد والأوضاع وأن المدرسة منحصرة فى نطاق ضيق ، يا للأسف إن الرجال الذين كانوا يستطيعون أن يكونوا أئمة زمانهم ،

أصبحت عقولهم بالية وفقدت كل نشاط وجدة فاقتنعوا بتقليد عصرهم »

إن الدكتور محمد إقبال لا يرى أن هذا الجيل حى قائم بنفسه يفكر بعقله ، انه يعتقد أنه ظل لأوربا وأن حياته عارية من الغرب يقول فى بيت « يتراءى لك أن الشاب المتعلم حى يرزق ولكنه فى الحقيقة ميت استعار حياته من الغرب » ويخاطب المتفرنج ويقول « ليس وجودك إلا تجلى الإفرنج لأنك بناء قد بنوه ، هذا الجسم العنصرى فارغ عن معرفة النفس فأنت غمد محلى بغير سيف ، وجود الله غير ثابت فى نظرك ووجودك أنت غير ثابت فى نظرى »

ومن رأيه أن نظام التعليم الغربى قد ضعف الروح المعنوية فى الشباب المسلم وجنى على رجولته جناية عظيمة فأصبح شبابا رخواً رقيقاً مائعا أغيد لا يستطيع الجهاد ولا يتحمل المكروه، يقول فى قصيدة يخاطب فيها بعض المربين « حيا الله شبيبتك يا مربى الجيل الجديد ، ألق عليهم درس التواضع وهضم النفس مع الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالشخصية ، علمهم كيف يشقون الصخور ويدكون الجبال فإن الغرب لم يعلمهم إلا صنع الزجاج ، إن عبودية قرنين

متواليين قد كسرت خاطرهم وأوهنت قلوبهم فانظر كيف تعيد الثقة إلى نفوسهم وتحارب الفوضى الفكرية » وكان لا يغتفر هذه الجريمة ، يقول فى موضع آخر « أنا لا أقيم لذلك العلم وتلك الحكمة وزناً التى تجرد المجاهد من سلاحه وتجعله أعزل ضعيفاً »

آراؤه فى العلوم والآداب :

وللدكتور محمد إقبال آراء حصيفة فى العلوم والأدب والشعر هى عصارة تفكيره وتجاربه منها أن الأدب موهبة كبيرة من مواهب الله وقوة عظيمة يحدث به صاحبه انقلاباً فى المجتمع وثورة فكرية ويضرب به الأوضاع الفاسدة الضربة القاضية ويشعل القلوب حماسة وغضبا ويشعل البلاد ناراً وثورة ، ويملأ النفوس قلقا واضطرابا وتذمرا من الشر وتطلعا إلى الخير ، فلا بد أن يكون فى قلم الأديب والشاعر التأثير الذى كان فى عصا موسى وأن يؤدى رسالته فى العالم ، وكل أدب استغل لجمع المادة أو إرضاء الأغنياء والأثرياء أو إثارة الشهوات أو على الأقل كان أداة اللهو والتسلية والتذوق بالجمال والتغنى به فهو أدب ضائع مظلوم استعمل لغير ما خلق له ولغـــير ما وهب له ، يقول فى بيت « أنا

لا أعارض التذوق بالجمال والشعور به فذلك أمر طبعى ، ولـكن أى فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره فى المجتمع كتأثير عصا موسى فى الحجر والبحر » ويعتقد محمد إقبال أن الأدب لا يصل إلى حد الاعجاز حتى يستمد حياته وقوته من أعماق القلب الحى ويسقى بدمه .

يقول محمد إقبال هذا ويرى بالعكس أن الأدب فى الشرق الإسلامى قد أصبح تتحكم فيه المرأة فأصبح لا يتحدث إلا عنها، ولا يتغنى إلا بها ولا يبحث إلا فيها ولا يصور إلا إياها ولا يرى فى الـكون إلا ظلها وجمالها ، وهذه عقيدة جديدة فى وحدة الوجود التى يمكن أن تسمى الوجودية الأدبية ، وكأن الأدب العصرى ينادى بلسان حاله (لا موجود إلا المرأة) أو (لا موجود إلا الفتاة) يقول محمد إقبال « أسفاً للشعراء والرسامين وكتاب القصة فى بلادنا ، لقد استولت على أعصابهم المرأة » ولا شك أنه تصوير صادق للاتجاه الأدبى العام فى الشرق الإسلامى واندفاع الأدب المتهور وراء المرأة وهيامه بها وإعراضه عما سواها .

وله فى الفلسفة وعلوم الحكمة كذلك رأى خاص فهو يرى أن الفلسفة لا تعيش إلا بالجهاد والتضحية ، وأن

الفلسفة التى تقتصر على الدراسات والبحوث العلمية وتتلهى بالمناقشات اللفظية ومباحث مابعد الطبيعة ، ولا تدخل فى صميم الحياة ولا تتعرض للمجتمع ، وتعيش فى العزلة عن العالم ، إنما هى فلسفة منهارة لا تستطيع أن تعيش ، يقول فى بيت « إن الفلسفة التى لم تكتب بدم القلب فلسفة ميتة أو محتضرة »

وقد انتهت به دراسته للفلسفة وتوفره على مطالعتها ونقدها والتفكير الطويل العميق إلى فشل الفلسفة فى مشاكل الحياة وأنها صدفة لامعة خالية من اللؤلؤ ، وأنها بمعزل عن الحياة والكفاح لا تساعد البشر ولا تمنحهم دستورا للحياة وأن الدين هو الذى ينظم المجتمع وينور الطريق ويقدم دستوراً للحياة ، وأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو المصدر الوحيد الذى يستفاد منه هذا العلم ، عرف الشاعر صديقا له من السادة الهاشميين قد أثرت فيه الفلسفة تأثيراً كبيراً وتزلزلت عقيدته الإسلامية ، فكتب إليه محمد إقبال قصيدة يقول « أنا رجل كما تعرف انتهى فى أصلى إلى سومنات « المعبد الوثنى المعروف فى الهند » وكان آبائى من عباد اللات ومناة وأن أسرتى عريقة فى البرهمية ، ولكن يجرى فى عروقك دم الهاشميين وتنتمى إلى سيد الأولين والآخرين ، وقد امتزجت

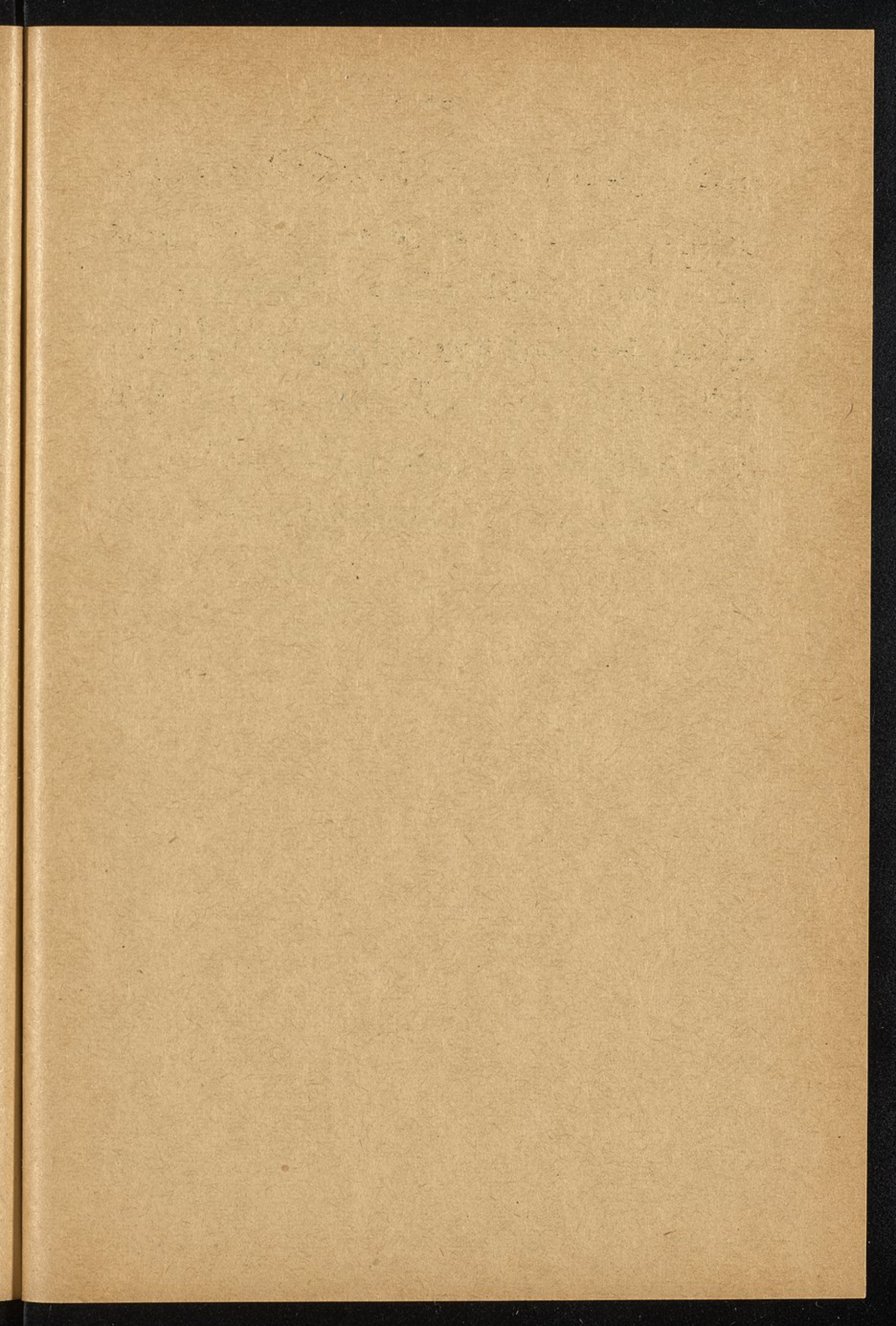
الفلسفة بلحمى ودمى وجرت منى مجرى الروح ، أنا وإن كنت
لا أحسن شيئاً فلا شك أنى نزلت فى أعماق هذه الفلسفة
وتغلغلت فى أحشائها، وبعد ذلك أقول إن الحكمة الفلسفية
ليست إلا حجابا للحقيقة وإنها لا تزيد صاحبها إلا بعداً عن
صميم الحياة وأن بحوثها وتدقيقاتها تقضى على روح العمل، هذا
هيجل الذى تبالغ فى تقديره إن صدفته خالية من اللؤلؤة
وأن نظامه ليس إلا وهماً من الأوهام ، لقد انطفأت شعلة
القلب فى حياتك أيها السيد وفقدت شخصيتك فأصبحت
أسيراً لبرجسان، إن البشرية تريد أن تعلم كيف تتقن حياتها
وكيف تخلد شخصيتها . إن بنى آدم يطلبون الثبات ويطلبون
دستوراً للحياة ، ولكن الفلسفة لا تساعدهم فى ذلك، بالعكس
من ذلك أن المؤمن إذا نادى الآفاق بأذانه أشرق العالم
واستيقظ الكون ، إن الدين هو الذى ينظم الحياة وأنه
لا يكتسب إلا من إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم ، فعليك
أيها السيد بتعاليم جدك صلى الله عليه وسلم، إلى متى يا ابن على
(رضى الله عنه) تقلد أبا على (ابن سينا) ! إذا لم تكن
بصيراً بالطريق فالقائد القرشى (يعنى رسول الله صلى الله
عليه وسلم) خير لك من القائد البخارى (يعنى ابن سينا) » .

وبالإجمال إن الدكتور محمد إقبال يرى أن نظام التعليم الحديث قد فشل فى أداء رسالته وأخفق فى إنتاج جيل جديد يحسن الانتفاع بمعلوماته ويحسن استعمال مادته العلمية وثروته الثقافية ويضع كل شىء فى محله ويعيش حياة سعيدة مطمئنة ، بالعكس من ذلك وجد جيل مثقف ثقافة عالية يعرف من مجاهل أفريقية والقطب الشمالى شيئا كثيراً وعن حياة الحيوان والنبات ولا يعرف عن نفسه ، ويسخر البخار والكهرباء ويسخر الطاقة الذرية فى الزمن الأخير ولا يملك نفسه وقوته ، ويطير فى الهواء كالطير ويسبح فى البحار كالسمك ولا يحسن أن يمشى على الأرض ، وما ذاك إلا لأن التعليم قد اختل ميزانه وفسد مزاجه وكيف يستقيم الظل والعود أعوج ؟! يقول فى قصيدة « من الغريب أن من اقتنص أشعة الشمس لم يعرف كيف ينير ليله وكيف يصبح ، وأن من بحث عن مسالك النجوم وطرقها لم يستطع أن يسافر فى بيداء أفكاره ، ومن عكف على الألغاز يحلها ويشرحها ، لم يستطع أن يميز النفع من الضرر » .

تصوير للشباب المسلم :

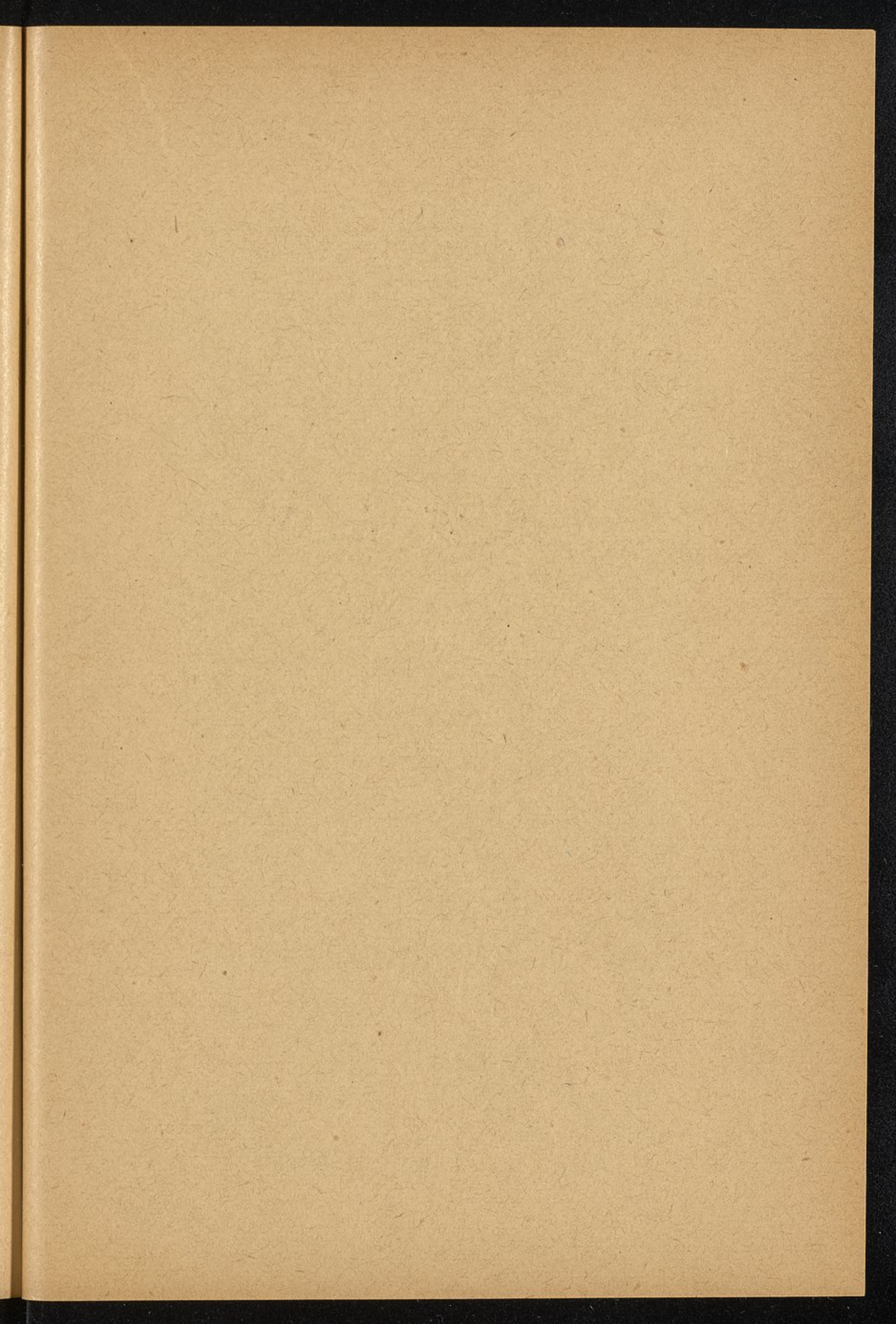
وفى الأخير إن الدكتور محمد إقبال يتمنى للإسلام جيلا جديداً شبابه طاهر نقى وضربه موجع قوى ، إذا كانت الحرب فهو فى صولته كأسد الشرى وإن كان صلح فهو فى وداعته كغزال الحمى ، يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل هذا مع الأعداء وذاك مع الأولياء ، إذا تكلم كان رقيقا رفيقاً وإذا جد فى الطلب كان شديداً حفياً وكان فى حالتي الحرب والصلح عفيفا نزيها ، آماله قليلة ومقاصده جليلة ، غنى القلب فى الفقر فقير الجسم والبيت فى الغنى ، غيوراً فى العسر رؤفا كريما عند اليسر ، يظمأ إن أبدى له الماء منة ويموت جوعاً إن رأى فى الرزق ذلة ، إذا كان بين الأصدقاء كان حريراً فى النعومة وإن كان بين الأعداء كان حديداً فى الصلابة ، كان طلا وندى تتفتح به الأزهار وترف به الأشجار وكان طوفاناً تصطرع به الأمواج وترتعد له البحار ، إذا عارض فى سيره صخور وجبال كان شلالا ، وإن مر فى طريقه بحدائق كان ماءا سلسالا ، يجمع بين ظلال إيمان الصديق وقوة على ، وفقر أبي ذر وصدق سلمان ، يقينه بين أوهام العصر كمصباح الراهب فى ظلمات الصحراء ،

يعرف فى محيطه بحكمته وفراسته وباذان السحر ، الشهادة فى سبيل الله أحب إليه من الحكومات والغنائم ، يقتنص النجوم ويصطاد الأسود ويبارى الملائكة ويتحدى الكفر والباطل أينما كانا ، يرفع قيمته ويزيد فى سعره حتى لا يستطيع أن يشتريه غير ربه ، شغلته مآربه الجليلة وحياة الجد والجهاد عن زينة الجسم والتأنق فى اللباس ، وشعر بإنسانيته فترفع عن تقليد الطاوس فى لونه والعندليب فى حسن صوته .



الانسان الكامل

فى نظر محمد إقبال



الانسان الكامل (*)

فى نظر محمد إقبال

بحث عن إنسان :

قال مولانا جلال الدين الرومى فى بعض مقطوعاته « رأيت البارحة شيخا يدور حول المدينة وقد حمل مشعلا كأنه يبحث عن شيء ! قلت له يا سيدى تبحث عن ماذا ؟ قال قد مللت معاشرة السباع والدواب وضقت بها ذرعا ، وخرجت أبحث عن إنسان فى هذا العالم ، لقد ضاق صدرى من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولى ، فخرجت أبحث عن عملاق من الرجال وبطل من الأبطال يملأ عينى برجولته وشخصيته ويروح نفسى ، قلت له : لقد غرتك نفسك يا هذا فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله لا تتعب نفسك وارجع أدراجك فقد أجهدت نفسى وأنضيت ركابى ونقبت فى البلاد فلم أر لهذا الكائن عينا ولا أثراً ، قال الشيخ

(*) كتبت هذه المحاضرة لتلقى فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول فى يوم إقبال ١٠ إبريل عام ١٩٥١ م .

إليك عنى أيها الرجل فأحب شيء إلى نفسى أعزه وجوداً وأبعده منالا . . . »

بهذه المقطوعة الشعرية افتتح الدكتور محمد إقبال كتابه الخالد « رسالة الشرق » ردا على تحية الشاعر الألمانى « جيته » التى أرسلها باسم الغرب إلى الشرق ، ولا أظن أن محمد إقبال إختار هذه المقطوعة وحلى بها صدر كتابه إلا لأنها تصور نفسيته وتعبر عن شعوره ، فقد كان بحكم دراسته الفلسفية من كبار الرواد الباحثين عن « الإنسان الكامل » فهل وجد محمد إقبال ضالته يا ترى وظفر بمطلوبه أم قطع منه الرجاء ؟

وإذا كان الجواب : نعم لقد وجد محمد إقبال ضالته من الناس وظفر بوطره من الرجال فتأكدوا أيها السادة أنه فتح أعظم من فتح « كلمبس » واكتشاف أجل خطرا وأعظم قدراً من اكتشاف العالم الجديد لأنه اكتشاف الإنسان المفقود وعثور على الإنسانيه الضائعة ولا خير فى العالم — قديمه وجديده — إذا فقد الإنسان وضاعت الإنسانية ، وحاجة العالم إلى إنسان أشد اليوم من حاجته إلى القارات الجديدة والبحار المجهولة .

المسلم هو الإنسان الكامل :

إن محمد إقبال يحدثنا فى شعره بأنه وجد هذا الإنسان المنشود وعرفه واتصل به و نراه قد هام به هياما وتغنى فى شعره بإنسانيته وشخصيته ، فأين وجده محمد إقبال ، وكيف السبيل إلى هذا الإنسان الرفيع ؟

أخاف أن أفاجئكم أيها السادة بما لا تقدرونه ولا تنتظرونه إذا أخبرتكم أن الإنسان الكامل الذى وجده محمد إقبال فوجد فيه ماكان ينشده من معانى الإنسانية والقوة والحياة والجمال والكمال هو (المسلم) لا أقل ولا أكثر .

إن هذا الجواب مفاجئة حقا للذين يحملون للمسلم صورة قاتمة هزيلة لا تتفق أبداً مع هذا التصوير الرائع الذى قدمه الشاعر للانسان الكامل ، ولكن محمد إقبال بالعكس من ذلك يرى فى المسلم « الضالة المنشودة » والصورة الكاملة للانسانية

المسلم المثالى :

ولكنه يعنى أيها السادة ذلك المسلم المثالى الذى يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه ويقينه ، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية ، وبين عباد الرجال

والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص ، وبين عباد الأوطان والألوان والشعوب بأفاقيته وإنسانيته ، وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده من الشهوات وتمرده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الحقيرة ، وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكبر نفسه ، ويعيش برسالته ولرسالته ، ذلك المسلم الحق الذى مهما اختلفت الأوضاع وتطورت الحياة لا يزال الحقيقة الثابتة التى لا تتغير ولا تتحول ، وأما ما عداه فزبد يذهب جفاء ، ذلك المسلم هو كالشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، أما ماعداه فشجرة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، يقول فى بيت « إنك أيها المسلم حق فى العالم وحدك وماعداك سراب خادع ودرهم زائف » ويقول فى بيت آخر « إن إيمان المسلم هو نقطة دائرة الحق وكل ما عداه فى هذا العالم المادى وهم وطلسم ومجاز »

المسلم له وجدانان :

أيها السادة إن المسلم له وجدان ، الوجود الإنسانى ، والوجود الإيمانى ، أما الوجود الإنسانى فهو الوجود الذى

يشاركه فيه كل إنسان ، يولد كعامة الناس وينشأ ويكبر كعامة الناس ويجوع ويظمأ ويشعر بالبرد والحر ويأكل ويشرب ويصح ويمرض ويموت ويحيا ويفقر ويغنى ويزرع ويتجر ويعول العيال ويربى الأطفال ويقتنى الأموال ويحكم البلاد والرجال ، فهو فى هذا الوجود خاضع للسنن الطبيعية تجرى عليه كما تجرى على غيره وتنفذ فيه كما تنفذ فى أى إنسان آخر ، وتقسو عليه كما تقسو على غيره ولا تتسامح معه لأنه يحمل اسماً خاصاً وينتمى إلى جنس خاص ويلبس لباساً خاصا ، وهو ذرة حقيرة فى صحراء الوجود المترامية وموجة عادية تأتى وتذهب فى بحر الكون الزاخر من غير أن يشعر بها أحد ، فإذا اقتصر المسلم على هذا الوجود البشرى العام وعاش كإنسان لا أقل ولا أكثر كان كائناً ضعيفاً فانياً ليست له قيمة كبيرة فى نظر صيرفى الوجود وإذا مات فى وقته ما بكت عليه السماء والأرض وما خسر فيه العالم شيئاً كبيرا .

أما الوجود الإيمانى فهو أنه يحمل رسالة خاصة رسالة الأنبياء والمرسلين ويؤمن بمبادىء خاصة ويعتقد اعتقاداً خاصا ويعيش لغاية خاصة ، فهو من هذه الناحية سر من أسرار الحق ودعامة من دعائم العالم وحاجة من حاجات البشرية

يستحق أن يعيش ويستحق أن ينتصر ويستحق أن يزدهر، بل يجب أن يعيش ويجب أن ينتصر ويجب أن يزدهر، ويدوم مع البشرية ومع هذا الكون، فحاجة البشرية وحاجة الكون إليه ليست أقل من حاجتهما إلى الماء والهواء والنور والحرارة، فإذا كانت أشكال الحياة مرتبطة بالمـــاء والهواء والنور والحرارة كانت معانى الحيـاة وحقائقها مرتبطة بالغايات والأرواح والإيمان والأخلاق التى تتكفل رسالات الأنبياء بشرحها وبيانها ويتكفل المسلم باعلانها والقيام بها والجهاد فى سبيلها، فلولاهو لضاعت هذه الغايات والرسالات وأصبحت سراً مكتوماً، إذن فمركزه فى العالم وبقائه كبقاء الشمس والكواكب النيرة تنقرض الأجيال والأمم وتحول الأنهار مجراها وتخرب عمائر وتعمر خرائب وتقوم حكومات وتتقلص حكومات وتأتى مدنيات وتذهب مدنيات وهو قائم لايزول ولايحول.

المسلم حى خالد:

يعتقد محمد إقبال أن المسلم حى خالد لأنه يحمل رسالة خالدة ويحتضن أمانة خالدة ويعيش لغاية خالدة، يقول فى

بيت « لا يمكن أن ينقرض المسلم من العالم لأن وجوده رمز لرسالات الأنبياء وأن أذانه إعلان للحقيقة التى جاء بها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم » ويقول فى بيت آخر « المسلم رسالة الله الأخيرة فلا يعتريه النسخ والتبديل » ولا يعنى محمد إقبال أن كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية حى خالد يفلت من الموت ويتمرد على القانون الطبعى ، كيف وقد قال الله تعالى « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » وقال « أفإن مت فهم الخالدون » ولكن محمد إقبال يرى أن المسلم موج من أمواج بحر الإسلام الخضم يأتى موج ويذهب موج وتترامى هذه الأمواج فى أحضان البحر وتتلاشى فى وجوده والبحر لا يتغير فالبحر امتداد دائم وتسلسل قائم لأجزاء متغيرة كبحر الحياة وبحر الوجود تتبدل أمواجه — وهى أفراد البشر — ولا يتبدل كيانه.

خلق العالم للمسلم :

ويتقدم محمد إقبال خطوة أخرى فيعتقد أن المسلم هو غاية هذا الكون خلق العالم له وخلق هو لله ، لقد كان العلماء يتباحثون فى صحة حديث « لولاك لما خلقت الأفلاك » ولكن

محمد إقبال لا تهمه صحة هذا الحديث لفظا ورواية ، إنه يفهم من القرآن ومن دراسة الإسلام وطبيعة المسلم ورسالته السامية ويفهم من دراسة التاريخ الإنسانى الواسعة العميقة والإطلاع الواسع على أوضاع العالم وطبائع الأشياء ، أن المسلم الذى هو جارحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه هو مصداق معنى الحديث فضلا عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهو خليفة الله فى أرضه خلق لأجله العالم وعلمه الأسماء وحكمه فى الأرض وأورثه خيراتها وخزائنها وألقى إليه بمقاليدها فيجب عليه أن يعتقد ويقتنع بأن العالم خلق له ويجاهد ويجتهد لتطبيق هذه العقيدة وتحقيق هذه الفكرة ، يقول فى بيت « إن العالم تراث للمؤمن المجاهد ، لا يشاركه فيه أحد ، ولا أعد مؤمنا كاملا من لا يعتقد أن العالم خلق له » .

مقام المسلم مقام الإمامة والتوجيه :

ويعتقد محمد إقبال أن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ويساير الركب البشرى حيث اتجه وسار ، بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ويفرض على البشرية اتجاهه ويملى عليها إرادته لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين ولأنه

المسؤل عن هذا العالم وسيره واتجاهاته ، فليس مقامه مقام التقليد والإتباع ، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة ومقام الإرشاد والتوجيه ومقام الآمر والناهى ، وإذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه وينازله ويظل فى صراع معه وعراك حتى يقضى الله فى أمره ، يقول فى بيت «يقول من لاخلاق له «در مع الدهر حيث دار» وإذا لم يسالمك الزمان فسالمه ، وأنا أقول إذا لم يسالمك الزمان فصارعه وحاربه حتى يفيء إلى أمر الله» ويرى أن المؤمن غير مأذون بمجاراة الأوضاع بل هو مكلف بمصادمة الأوضاع الفاسدة يرد الأمر إلى نصابه ويقيم سالفة الدهر الغشوم ، ويقيم العوج ويصلح الفاسد ، وإن كلفه ذلك عملية الهدم والنقض والعملية الجراحية فان كل ذلك فى سبيل البناء والعمارة والإصلاح ، يقول فى بيت «على المسلم أن يربي فى نفسه الروح وينشىء فى هيكله الحياة ثم يحرق هذا العالم الفاسد بحرارة إيمانه ووهج حياته وينشىء عالما جديداً» ويقول متمثلا «سألنى ربي هل ناسبك هذا العصر وانسجم مع عقيدتك ورسالتك؟ قلت لا يارب! قال لحطمه ولا تبال!»

ويرى محمد إقبال أن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام ، يقول فى بيت « المسلم الضعيف يعتذر دائما بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوى فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذى لايرد » ويقول « إذا أحسن المؤمن تربية شخصيته وعرف قيمة نفسه لم يقع فى العالم إلا ما يرضاه ويحبه » .

المسلم رائد الانقلاب ورسول الحياة :

ويرى محمد إقبال أن المسلم هو مصدر الانقلاب الصالح فى التاريخ ومطلع فجر السعادة فى العالم ، وأنه لم يزل ولا يزال رائد الإنقلاب ورسول الحياة ومؤذن الفجر فى الليل البهيم ، وأن أذانه لا يزال صيحة تدوى فى هدوء الليل وسكون الموت فيعيد إلى هذا العالم النائم الناعس المتعب حياته ونشاطه ويؤذن بطلوع الصبح الصادق وانصرام الليل الغاسق ، وعلى هذا الأذان الصارخ والنداء العالى الذى ارتفع من جبل أبي قيس قبل ثلاثة عشر قرنا استيقظ هذا الكون بعد السبات العميق الذى غط فيه خمسة قرون وأكثر وكان نفخة صور

للإنسانية الميتة والعالم المحتضر وهو الكفيل الآن بإيقاظ الإنسانية وإحياء الضمير البشرى ، يقول فى بيت « إن المؤمن اذا نادى الآفاق بأذانه أشرق العالم واستيقظ الكون » ويقول فى قصيدة « لست أعلم بالتأكيد مصدر هذا الصبح الذى يطلع على هذا العالم كل يوم ولست أعلم سره ، ولكنى أعلم أن السحر الذى يهتز له هذا العالم المظلم ، ويولى به ليل الإنسانية الحالك إنما ينشأ بأذان المؤمن الصادق » .

قوة المؤمن مستمدة من رسالته :

ويعتقد محمد إقبال بحق أن قوة المؤمن الخارقة للعادة ، المحيرة للعقول ، المعجزة للبشر ، مستمدة من رسالته وإيمانه وباندماجه واضمحلاله فى إرادة الله ، هنالك يتحول جارحة للقدرة الإلهية وقوة قاهرة لا تصدها الجبال ولا تقف فى سبيلها البحار ، يقول فى قصيدة أنشأها فى قرطبة « إن يد المؤمن جارحة القدرة الإلهية ، فهى غلابة حلالة للعقد والمشاكل ، فتاحة للأبواب المقفلة ، لبقة صناع حاذقة ، إن المؤمن جسمه من تراب وفطرته من نور ، عبد متخلق بأخلاق مولاه ، قلبه غنى عن العالمين » ويقول على لسان القائد الإسلامى

الكبير طارق بن زياد فاتح الأندلس وهو يدعو لأصحابه العرب بالنصر ويناجى ربه «إن هؤلاء الغزاة المجاهدين عبيدك الغامضون الذين لا يعرفهم غيرك وقد أصبحوا اليوم يطمحون إلى فتح العالم وإخضاعه ، إذا ركلوا برجلهم الصحراء انشقت إذا ركلوا برجلهم البحر انفلق ، انكمشت الجبال وتقبضت بمهابتهم ، إنهم عرفوك وأحبوك فزهدوا فى العالم واستغنوا عن الدنيا ، لا يطلبون إلا الشهادة فى سبيلك ولا يهدفون بجهادهم إلى الفتح والغنائم ، لقد أفردت رعاة الإبل بنعمتك وميزتهم بين أقرانهم فى الخبر والنظر وأذان السحر ، لم يزل العالم يعوزه لوعة القلب والتوجع للانسانية المظلومة وفى قلوب هؤلاء الجريحة وفى أكبادهم المتقدة وجد العالم مأربه » بل أن الشاعر يتقدم خطوة ويقول « ما ظنك بقوة ساعد المؤمن وهو بنظرته يقلب الأوضاع وبدعوته يرد القضاء » والمطلع على التاريخ يصدق ما قاله محمد إقبال فقد هزأ المسلمون المؤمنون فى عصرهم الأول من الجبال والبحار وشقوا طريقهم غير محتفلين بما تعترضهم من أشواك وعقبات ، وقصص سعد بن أبى وقاص وخالد ابن الوليد والمثنى بن حارثة الشيبانى وعقبة بن عامر ومحمد

ابن قاسم الثقفى وموسى بن نصير وطارق ابن زياد شاهدة على صدق ما قاله محمد إقبال .

المسلم لا ينحصر فى الأوطان والشعوب :

ويرى محمد إقبال أن المسلم حقيقة عالمية لا تنحصر بين حدود الجنسية والوطنية الضيقة ، بل تتخطى حدود المكان والزمان وتفيض كالطبيعة البشرية وكالإنسانية العامة فى مساحة زمانية شاسعة كمساحة التاريخ الإسلامى وفى مساحة مكانية واسعة كمساحة العالم الإسلامى ، يقول فى قصيدة قرطبة « إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود ولا يعرف أفقه الثغور ، ليست دجلة والنيل ودانوب إلا أمواجا صغيرة فى بحره المتلاطم ، عصوره عجيبة وأخباره غريبة ، نسخ العهد العتيق وغير مجرى التاريخ ، هو فى كل عصر ساقى أهل الذوق وفى كل مكان فارس ميدان الشوق ، شرابه رحيق دائما وسيفه ماض فى كل معركة » ، ويعتقد محمد إقبال أن العالم كله وطن للمسلم ، يقول فى بيت « المسلم الربانى ليس بشرقى ولا غربى ليست وطنى دهلى ولا أصفهان ولا سمرقند ، إنما وطنى العالم كله » ، ويعتقد محمد إقبال إن المسلم يعتبر كل ملك الله وطنا له

يقول « لما نزل طارق بالجزيرة الخضراء أمر بالسفن فأحرقت، فجاءه رجال من الجيش ولاموه على فعله وقالوا له : لقد قطعت بنا الحبال فكيف نرجع إلى بلادنا ؟ فوضع طارق يده على السيف وقال أنا لا أفكر فى الرجوع وسنبقى هنا وتتخذه وطننا ، فإن كل ما كان لله من أرض وبلاد وطن لنا، لا فرق في ذلك بين العجم والعرب والشرق والغرب » .

المسلم متخلق بأخلاق الله :

ويعتقد محمد إقبال أن المسلم يجمع بين المتناقضات من الأخلاق والصفات وما هى بمتناقضات ولكنها ظلال صفات الله ومظاهر أخلاق الله ، فهو فى تسامحه ورحابة صدره وكثرة صفحه قد تخلق بخلق « الغفار » ، وفى شدته فى الدين وغضبه للحق وثورته على الباطل قد تخلق بخلق « القهار » وهو فى نزاهته وعفته وطهارة ضميره قد تخلق بخلق « القدوس » وفى صلابته إذا تصلب وشدة شكيمته إذا أبى وشدة بطشه إذا حارب تخلق بخلق « الجبار » ولا يكون المسلم المثل الكامل لدينه وصورة صادقة للإسلام حتى يجمع بين هذه الأخلاق المتنوعة فيجمع بين الشدة واللين ، والغضب والرحمة والصلابة

والمرونة والعفة والنزاهة ويكون فى ذلك آية من آيات الله ومعجزة من معجزات الرسول ، ثم يقول الشاعر إن المؤمن هو الميزان العادل والقسطاس المستقيم به يعلم رضا الله وسخطه وبه يعرف الحسن من القبيح ، فما راق فى نظره فهو حسن وما استقبحه فهو قبيح وما ثقل فى ميزانه فهو ثقيل وما خف فهو طائش ، وفى عزائمه تتجلى إرادات الله وهو القرآن الناطق ، وهو الدين يسعى على قدميه ، ثم إن حياته متوافقة متشابهة كالطبيعة فالصبح يطلع كل يوم والليل يتبع النهار لا تخلف فيه ولا تناقض وهو صاحب معان كثيرة ونغمة واحدة فهو كسورة الرحمن فى القرآن تتجدد معانيه وتتكرر فيه آية « فبأى آلاء ربكما تكذبان » وقد صدق الشاعر فالمسلم لم يزل يتحف كل عصر بعلومه وتوجيهاته وينير ظلمات كل عصر بنوره وضيائه ويضرب على وتر واحد ويكرر رسالة الأنبياء ويقول لكل جيل « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » فهو كالصبح جديد وقديم فهو فى جدته ليس شىء أجد منه وهو فى قدمه ليس شىء أقدم منه ، هو قديم لكنه يتجدد به العالم وتتجدد فيه الكائنات وتنتعش به القوى وتستيقظ به الأجسام والقلوب والعقول ، ثم أنه

جديد بنفسه تتجدد قواه ويتجدد نشاطه وتتفتح قريحته مع العصور، علمه سيار وعقله مبتكر ونفسه طموح وهمته وثابة وهو كالمطر كل قطرة غير الأولى ولكنها قطرات مطر وكلها تحيي الأرض وكلها تنبت النبات وكلها تسقى المزارع والأشجار وكلها تفتح الأزهار وكلها تكون الأنهار وهو معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « أمتى كالمطر لا يدرى أأوله خير أم آخره ».

المسلم كالشمس لا تغرب مطلقا :

ويقول محمد إقبال إن المسلم كالشمس إذا غربت فى جهة طلعت فى جهة أخرى فلا تزال طالعة ، وقد صدق فإن الإسلام لم ينكب فى ناحية من نواحى العالم ولم يخسر إلا وفتح فتحا جديداً فى ناحية أخرى ولم يخسر فى جانب دولة إلا وقامت له دولة فى جانب آخر ، ولم تسقط له راية إلا وخفقت له راية أخرى، ولم يغب له نجم إلا وطلع له نجم آخر ، لقد كانت خسارة الأندلس الإسلامية كارثة كبيرة ومصابا عظيما ولكن عوض الإسلام بها بدولة فتية من أعظم دول العالم هى دولة آل عثمان فى تركيا قامت فى نفس

القارة الأوربية وجثمت على صدر الدول والأمم المسيحية التى انتزعت الأندلس الإسلامية وأجلت المسلمين من وطنهم العربى الاسلامى، وكان سقوط غرناطة وأوج الدولة العثمانية فى عهد سليمان القانونى حادثين فى عصر واحد، ونكب العالم الإسلامى ونكبت بغداد بغارة التتار وانطمست معالم الحضارة الإسلامية وزلزل المسلمون زلزالا شديداً ولكن فى نفس هذه الفترة كانت الدولة المسلمة فى الهند تتسع وتزدهر، وأصيب العالم الإسلامى بهزات عنيفة وقواصم مؤلمة فى فجر هذا القرن المسيحى على أيدى الأوربيين، فقد اقتسمت الدول الأوربية تراث الدولة العثمانية كمال سائب واغتصبت ممتلكاتها فى أفريقية وتقاسم الحلفاء سورية وفلسطين والعراق، ولكن تبع هذا كله اليقظة الإسلامية الهائلة والوعى السياسى القوى والطموح إلى الاستقلال والحرية والحركات الإسلامية المختلفة التى كان يجيش بها العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه، ونكب المسلمون فى العهد الأخير نكبات عظيمة فى الشرق الأقصى والأوسط وخسرت الدول العربية فلسطين العربية الإسلامية ولكن فى نفس هذه الفترة قامت للمسلمين دولتان فتيتان فى الشرق إحداهما

دولة باكستان والأخرى أندونوشيا ، وهكذا لم يزل التاريخ الإسلامى متأرجحاً بين الأسفل والأعلى فما تسفل منه جانب إلا وترفع جانب آخر كالأرجوحة تماماً ، ولم تتوار شمسه فى أفق إلا وبزغت فى أفق آخر ، وذلك لأن الاسلام رسالة الله الأخيرة التى لا رسالة بعدها والمسلمون هم الأمة الأخيرة التى لا أمة بعدهم ، فإذا ضاعوا فقد ضاعت الرسالة وإذا هلكوا فقد غرقت السفينة التى تحمل الذخيرة .

المسلم هو المنافس الوحيد والخطر الدائم على الباطل :

لذلك لم يزل الباطل يعتبر المسلم المنافس الوحيد والمصارع الشديد لنظامه ، ووكلائه يحسبون له كل حساب ويتربصون به الدوائر ولا يعدلون به خطراً من الأخطار ولا يهدأ لهم بسببه خاطر ولا يقر لهم قرار ، وهم ينادون بلسان الحال « لا نجونا أن نجا الإسلام ولا عشنا أن عاش المسلمون » وقد وصف محمد إقبال فى قصيدته البديعة « برلمان إبليس » فى ديوانه الأخير « أرمغان حجاز — يعنى — هدية الحجاز » وذكر خطورة الإسلام فى نظر إبليس وجنوده وأنا أنقل هنا ترجمته من كتابى « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » .

« إن الشياطين وزملاء إبليس وأعوانه اجتمعوا فى مجلس شورى وتباحثوا فى سير العالم وأخطار الغد وفتنه وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الإبليسى ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا فى فتن وأخطار قد أحدقت بهم وهددت نظامهم وجللوا خطبها وتناذروا شرها فذكر أحدهم الجمهورية وحسب لها حسابا كبيرا ، فقال الثانى : لا يهولنك أمرها فإنها ليست إلا غطاءآ للملوكية ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهورى إذ رأينا الإنسان بدأ يتنبه ويفيق ويشعر بكرامته وخفنا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها فألهيناه بلعبة الجمهورية وليس الشأن فى الأمير والملك ، إن الملوكية لا تنحصر فى وجود شخص ترتكز فيها الملوكية وفرد يستبد بالسلطان ، إنما الملوكية أن يعيش الإنسان عيالا على غيره مستشرفا إلى متاع غيره سواء فى ذلك الشعب والفرد ، أما رأيت نظام الغرب الجمهورى وجهه مشرق وضاح وباطنه أظلم من باطن جنكيز خان .

فقال الآخر : لا بأس إذا بقيت روح الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم فى هذه الفتنة الدهماء التى أثارها هذا اليهودى الذى يدعى « كارل ماركس » ذلك الباقعة الذى

ليس نبيا ولكنه يحمل عند أتباعه كتابا مقدسا ، هل عندك نبأ أنه أقام العالم وأقعده وأثار العبيد على السادة ، حتى تزعزعت مبانى الإمارة والسيادة ؟ .

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : ياصاحب الفخامة إن سحرة أوربا وإن كانوا مريديك المخلصين ولكنى لم أعد أثق بفراستهم ، ها هو السامرى اليهودى الذى هو نسخة من « مزدك » [الزعيم الفارسى الاشتراكى] ، قد كاد يأتى على العالم بقواعده فاستنسر البغاث وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ويدفعونهم بالراح (أعلام أرض جعلت بطائحا) انا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية وها هى قد استفحلت وتفاقم شرها وها هى الأرض ترجف بهول فتنة الغد ، يا سيدى إن العالم الذى كنت تحكمه سينقض عليك وينقلب نظام العالم ظهراً لبطن .

فتكلم رئيس المجلس « إبليس » وقال : إنى أملك زمام العالم وأتصرف به كيف أشاء وسيرى العالم عجبا إذا حرشت بين الأمم فتهارشت تهارش الكلاب وافترس بعضها بعضاً فعل الذئاب وإذا همست فى آذان القادة السياسيين وأساقفة الكنائس الروحانيين فقدوا رشدهم وجن جنونهم

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية فكونوا على ثقة أن الخرق الذى أحدثته الفطرة بين الإنسان والانسان لا يرفأه المنطق المزدكى (يعنى الفلسفة الاشتراكية) لا يخوفنى هؤلاء الاشتراكيون الطرداء والصعاليك السفهاء .

إن كنت خائفا فإنى أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة فى رمادها ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع وتسيل دموعهم على خدودهم سحرا ، لا يخفى على الخبير المتفرس أن الإسلام هو فتنة الغد وداهية المستقبل ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجورا وأنها فتنت بالمال وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم ، أنا خبير بأن ليل الشرق داج مكفهر وأن علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التى تشرق لها الظلمات ويضىء لها العالم ، ولكنى أخاف أن قوارع هذا العصر وهزاته ستقض مضجعها وتوقظ هذه الأمة وتوجهها إلى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، إنى أحذركم وأنذركم من دين محمد صلى الله عليه وسلم ، حامى الذمار حارس الذمم والأعراض ، دين الكرامة والشرف دين الأمانة والعفاف

دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد ، يلغى كل نوع من أنواع الرق ويمحو كل أثر من آثار استعباد الانسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ولا يؤثر سلطاناً على صعلوك ، يزكى المال من كل دنس ورجس ويجعله نقياً صافيا ، ويجعل أصحاب الثروة والملاك مستخلفين فى أموالهم ، أمناء لله وكلاء على الأموال ، وأى ثورة أعظم وأى انقلاب أشد خطراً مما أحدثه هذا الدين فى عالم الفكر والعمل يوم صرخ أن الأرض لله لا للملوك والسلاطين .

فابذلوا جهدكم أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس وليهنكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه قليل الإيمان بدينه نخير لنا أن يظل مشتغلا بمسائل علم الكلام والإلهيات وتأويل كتاب الله والآيات ، اضربوا على آذان المسلم فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ويبطىء سحره ، اشغلوه يا إخوانى عن الجد والعمل حتى يخسر الرهان فى العالم ، خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ويهجر هذا العالم ويعتزله ويتنازل عنه لغيره ، زهدا فيه واستخفافا لخطره ، يا ويلتنا ويا شقوتنا

لو انتبهت هذه الأمة التى يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعسه » (١)

مؤامرة أنصار الباطل ضد المسلم :

وفعلا نجح شياطين الإنس والجن فى مهمتهم وكانت مؤامرة مبيتة ضد الإسلام وخطة منظمة ضد أجياله القادمة فأكبر ما اهتموا به هو إطفاء الجمرة الإيمانية التى لا تزال كامنة فى الرماد وتجريد المسلمين فى بلاد العرب والعجم من الحمية الدينية والعاطفة الإسلامية التى تحمل أصحابها على التضحية والجهاد وتحمل الشدائد والمكاره فى سبيل الله والثورة على الباطل وقد أوصى بذلك إبليس أشياعه وجنده ، يقول محمد إقبال فى قصيدة عنوانها « وصية إبليس إلى تلاميذه السياسيين » « إن هذا المجاهد الذى يصبر على الجوع ولا يحسب للموت حسابا ، أخرجوا روح محمد صلى الله عليه وسلم من جسمه ، فيصبح قليل الصبر ، جزوعا من الفقر شديد الخوف من الموت ، وأشغلوا العرب بالأفكار الغربية وانتزعوا من أهل الحرم تراثهم الدينى تتمكنون بذلك من

---

(١) « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ص ٢٣٠ — ٢٣٣

إجلاء الإسلام من الحجاز واليمن ، إن فى الأفغان غيرة دينية وعلاجها أن تنفو العالم الدينى من جبالها وسهولها .

وكان من أقرب الطرق للوصول إلى هذا الهدف هو التعليم الذى يجرد الشباب المسلم من الروح الدينى والعواطف الإسلامية والعقلية الإسلامية وينشىء فيه طبيعة النفعية والأبيقورية وطبيعة التهام الحياة وانتهاب المسرات وتقديس المادة ورجالها وعدم الاستقامة الخلقية والتماسك وضعف الثقة بالنفس والشك فى الدين ، لذلك يرى شاعر هندى آخر إسمه أكبر الاله آبادى أن فرعون مصر أخطأ الرمية وجانبه التوفيق فى تحقيق فكرة القضاء على بنى اسرائيل فقد التجأ فى قتلهم وإبادتهم إلى طرق سافرة ألصقت به العار وأثارت عليه اللعنات ، فكان يقتل أبناءهم ويستحى نساءهم ليأمن ثورة بنى إسرائيل وغائلتهم فى المستقبل ، ولو أنه رزق شيئا من الابتكار وبعد النظر ودقة التفكير لاكتفى بتأسيس كلية لبنى اسرائيل ينشىء الجيل الاسرائيلى الجديد كما يشاء ويسبك العقول والطبائع سبكا جديدا لا يدع إمكانا لنشأ شاب مثقف يشعر الشعور الدينى ويحمل العاطفة الدينية والغيرة القومية ويهتم بشىء آخر غير الوظائف والمناصب والمرتبات

والدرجات ، لو أن فرعون وفق لهذا المشروع لتفادى من هذه المتاعب وسوء الأحدوثة ووصل الى غايته فى سهولة ويسر وهدوء وسلام وزيادة على ذلك اشتهر فى الناس بلقب « حامى العلم » و « مربى الجيل » وناشر الثقافة والتعليم فى الشعب .

نجاح أنصار الباطل فى إضعاف الروح الدينى :

ويرى محمد إقبال أن أنصار الباطل قد نجحوا نجاحاً كبيرا فى فكرتهم وجهودهم ، فضعف الشعور الدينى فى بلاد الإسلام وخمدت جذوة الإيمان وفقدت البطولة الإسلامية وروح الجهاد وفشت النفعية وجمحت المادية ، يقول الشاعر وقد ساح فى كثير من البلاد الإسلامية والعربية « لقد تجولت فى بلاد العرب والعجم فرأيت خلفاء أبى لهب كثيرين تفيض بهم البلاد ، والمتشبعين بروح محمد صلى الله عليه وسلم نادرا كالكبريت الأحمر والعنقاء المغرب » ويقول فى قصيدة قالها فى فلسطين « لا أرى فى بلاد العرب تلك اللوعة القلبية التى كان يمتاز بها العرب ، ولا فى بلاد العجم ذلك السمو الفكرى الذى كان يمتاز به العجم ، لا تزال دجلة والفرات

متعطشتين إلى بطل من أبطال الإسلام ولكنى لا أرى فى قافلة الحجاز أحدا يقوم مقام الحسين » .

يشعر محمد إقبال بهذا التدهور الذى وقع فى حياة المسلمين ويتألم لذلك أشد الألم ويبكى دما وشعره يفيض بهذه الأنات والدموع ، يقول فى أبيات « ياوارث التوحيد الإسلامى لقد فقدت الكلام الجذاب الساحر والعمل المسخر القاهر ، لقد كنت يوماً من الأيام إذا نظرت إلى أحد ارتعد فرقا منك وطار قلبه شعاعاً وقد أصبحت اليوم كسائر الناس لا تحمل روحا ولا تجذب نفوسا » ويقول فى موضع آخر « إن السجدة التى كانت تهتز لها روح الأرض لقد طال عهد المحراب بها واشتاق إليها المسجد كما تشتاق الأرض الجديبة الخاشعة إلى المطر ، لم أسمع فى مصر ولا فى فلسطين ذلك الأذان الذى ارتعشت له الجبال بالأمس » ويقول فى بيت « لقد فقد المسلم لوعة القلب وانطفأت نار الحياة فيه فأصبح ركاماً من تراب » ويقول « لم أر فى محيطك أيها المسلم لؤلؤة الحياة وقد بحثت عنها موجة موجة وتفقدتها صدفة صدفة » ويرى محمد إقبال أن مصدر هذا التدهور هو القلب الذى خوى من الإيمان وشعلة الحياة يقول

« لقد فقد المسلمون سورة الحب الصادق ونزفهم دم الحياة فأصبحوا هيكلا من عظام لا روح فيه ولادم ، الصفوف زائغة والقلوب مضطربة والسجدة لا لذة فيها ، ذلك لأن القلب خال من الحنان » .

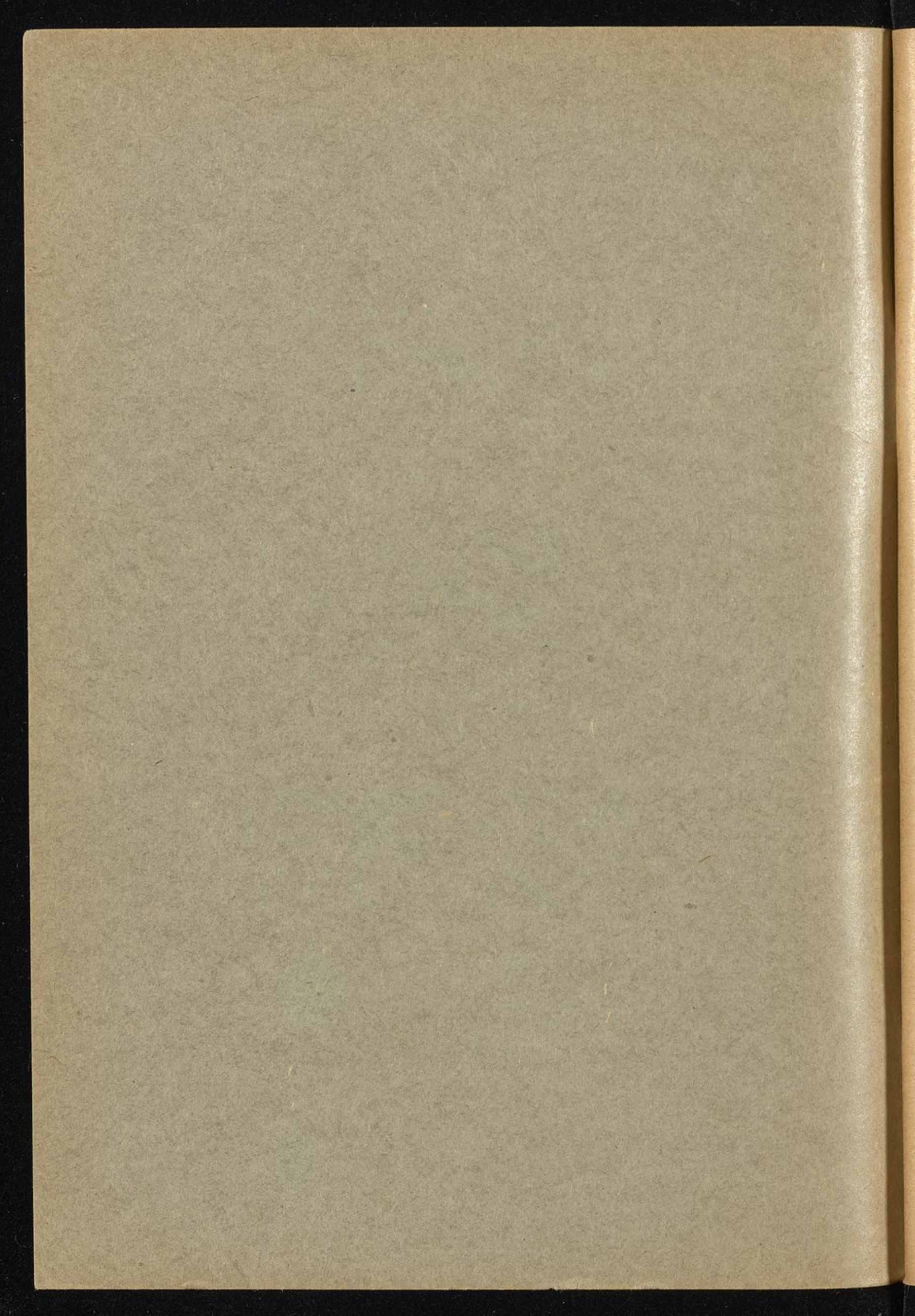
اليقظة الإسلامية :

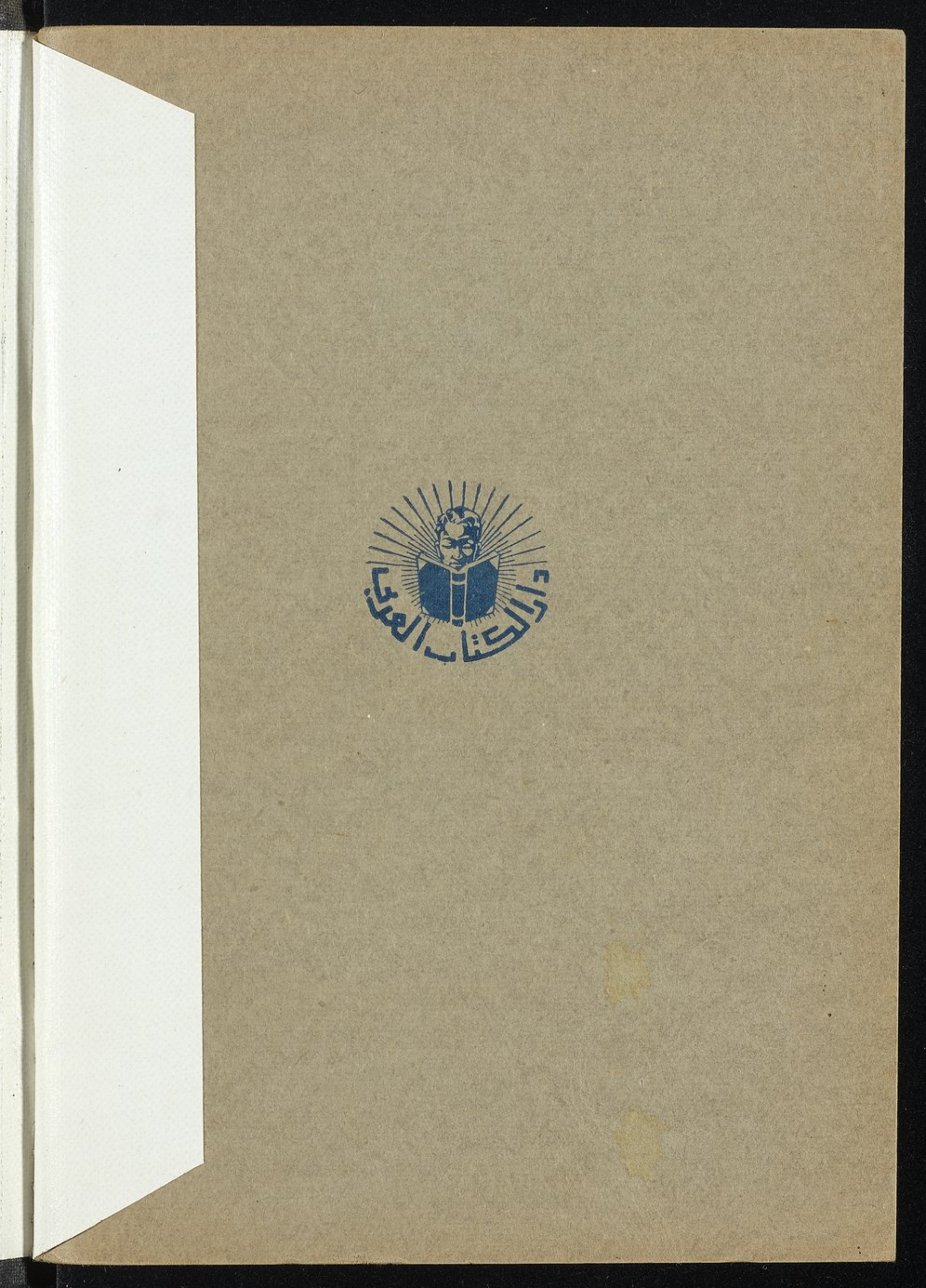
هذا ولكن محمد إقبال يعتقد أن الصدمات السياسية التى أصيب بها العالم الإسلامى أقضت مضجع المسلمين وأيقظتهم ودب فيهم دبيب الحياة ، يقول فى قصيدته البليغة « طلوع الإسلام » « إذا رأيت النجوم شاحبة متكدرة تخفق فأعلم أن الفجر قريب ، هاهى الشمس قد ذرقرنها من الأفق وولى الليل على أدباره ، إن عاصفة الغرب قد أعادت المسلم إلى الإسلام فانما تتكون اللآلى فى البحر المتلاطم الهائج ، لقد دب دبيب الحياة فى الشرق وجرى الدم الفائر فى عروقه الميتة وذلك سر لا يفهمه ابن سينا والفارابى . أن المسلم سيمنح من الله الأبهة التركية والذكاء الهندى والنطق العربى » ويقول فى بيت « إن إقبال ليس يائسا من تربته الحقيرة فانها إذا سقيت أتت بحاصل كبير » .

المسلم هو بانى العالم الجديد :

ويرى محمد إقبال أن الحضارة الغربية قد مثلت دورها ونثرت كنانتها وقد شاخت وهرمت وأينعت كالفاكهة وحان قطافها ، وأن العالم القديم الذى حوله مقامروا الغرب إلى حانة الفساد والمقامرة منهار قريبا والانسانية تتمخض بعالم جديد ، ويعتقد محمد إقبال أن هذا العالم الجديد لايحسن تصميمه الا من بنى للانسانية البيت الحرام بالأمس وورث ابراهيم ومحمداً صلى الله عليه وسلم فى قيادة العالم وارشاده ، فيهيب محمد اقبال بهذا المسلم النائم وينشده بالله أن يقوم ويمسح النوم من عينيه فقد ظهر الفساد فى البر والبحر وعاث الأوربيون فى الأرض وأفسدوا فيها بعد إصلاحها وخربوا العالم وملأوه ظلما وظلمات ، وشروراً وويلات ، وليست هذه الأرض إلا بيتا من بيوت الله جعلها مسجداً وطهوراً وأذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ولكن الأوربيين قد حولوها إلى خمارة ، وبيت الفسق والدعارة ومكان النهب والغارة ، وقد أن لبانى البيت الحرام وحامل رسالة الإسلام أن يقوم ويصلح ما أفسده الأوربيون ويعيد هذا البيت إلى قواعد إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ويبنى العالم من جديد .

فهرست




دار الكتاب العربي